جمهورية العراق
ديوان الوقف السني
مركز البحوث والدراسات الإسلامية

الموسوعة الإسلامية
(٧)

حقائق جلية
من القرآن الكريم والسنة النبوية

تأليف
محمد محي موسى

١٤٢٨هـ
٢٠٠٧م

جميع الآراء في هذا المطبوع تمثل رأي كاتبها

إهـــــداء

إلى والديّ رحمهما الله – تعالى – وإلى زوجتي التي كانت مثالاً للـــسكن والمـــودة والرحمة وإلى أبنائي الأعزاء أهدي كتابي هذا داعياً الله – عز وجل – أن تكون فيه الحكمة والدعوة الحسنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديـــم

قرأت هذه الرسالة النافعة للأستاذ المهندس محمد محي موسى ، التي وضع لها عنواناً هو: (حقائق جليـــة مـــن القرآن الكريم والسنة النبوية) ، ووقفت على موضوعاتها ومباحثها التي سبق للباحث أن نشرها تباعـــاً فـــي مجلـــة التربية الإسلامية، فرأيت أن ما تناوله فيها من أبحـــاث ، وأفكار ، ومعلومات يحتاج إليها المثقف المسلم فـــي هـــذا اليوم ، وإذا علمنا أن المقالات قد ضمت جملة كبيرة مـــن الحقائق القرآنية، والنبوية ، علمنا أهمية هذه المباحث لكل من يريد معرفة ما تضمن القرآن الكريم والحديث النبـــوي الشريف من المعجزات ، والإشارات العلمية التي نحن في حاجتها ، ومعرفتها ، والانتفاع بها .

تناول الباحث موضوعاته مقسمة على ثلاثـــة فـــصول تضمن الفصل الأول (حقائق إحصائية) ، وخـــلال هـــذا الفصل تناول ما أسماه بالمعجزة الإحصائية ، وذكر حقائق

جلية ومهمة في حياة المسلمين ، وحقائق عن تميز الإعجاز القرآني ، وسرد لذلك أمثلة جميلة ورائعة ، كاستمرار تلاوة كتاب الله العظيم على مدى لحظات الدهر في الأرض ، ولا سيما في الصلوات الخمس لعامة المسلمين ، وحاول بشكل دقيق أن يسرد إحصائيات ونسباً مئوية بالثواني والدقائق والساعات والأيام ، فأثبت أن لحظات الزمان مشحونة بذكر الله ، وذكر نبيه وبشكل متواصل . ولذلك رأى (أن القرآن الكريم هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم ، وبدون منافس إلى يوم القيامة) وهذه حقيقة ملموسة وتفرد معجز لهذا الكتاب العزيز .

وتناول في الفصل الثاني (حقائق واقعية) تمسّ : ذكر الله – تعالى – وتسبيحه ، وورود ذكر الله في الكتاب والسنة والتسبيح ثم الذكر باللسان ، أو في القلب ، وأهمية ذلك في حياة المسلمين وفسّر الذكر والتسبيح – لغة واصطلاحاً – ، وشفع ذلك بذكر ما ورد من الآيات والأحاديث في أهمية الذكر والتسبيح عند الإنسان، والمخلوقات الأخرى ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ**

بِحَمْدِهِ ﴾[1] ، وتناول الباحث خلال ذلك أوقات الذكر والتسبيح والأماكن المخصصة لذلك ، وقد قوّى ذلك بما ورد من آيات وأحاديث تُسند ما يريد تثبيته في أهمية الذكر والتسبيح والحمد .

قال – تعالى –: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ** ﴾[2].

وقال: ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** ﴾[3] ، إلى غير ذلك مما يؤكد أهمية الذكر والحمد والتسبيح ، واختيار الأوقات والمواضع لأدائها على الوجه الذي ورد في كتاب الله العزيز، وفي سنة نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – .

ولم ينس الباحث خلال ذلك أن يتناول المباحث التي تتصل بهذه الأمور ، كمتاع الدنيا ، وترك زخرفها ، والتوجه إلى الله – تعالى – وإلى العلم ، ونبذ الجهل ،

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

(٢) سورة النور: ٣٦-٣٧.

(٣) سورة ق: ٣٩.

وأهمية التقوى ، وترك الظلم ، والإقساط بين الناس ، وما أشبه ذلك مما يعترض الإنسان في حياته الدنيوية .

وعرض الباحث للعقيدة والتشريع ، كما عرض لمفهوم الرحم ومتعلقاته في الإسلام ، ومفهوم المكر في الإسلام ، كما ورد في القرآن الكريم ، ومنافع الأقليات الإسلامية ، والميزات الجلية للعيدين المباركين في حياة المسلمين ، ومفهوم السكون في القرآن الكريم ، سكون الأرض ، وسكون البيت والخيام والجبال وسكون الحيوان ، والقبور من بعد الموت إلى يوم القيامة ، ثم دخول الجنة والسكن فيها كونياً ومعنوياً .

ثم تناول حقيقة المساجد الإسلامية ، وميزاتها في الأرض ففسر معنى المسجد ، ومعنى السجود ، وعضد ذلك بما ورد فيها من الكتاب والسنة ، وأهمية المسجد الروحية ، وأهمية إعمارها وبنائها ورعايتها والحفاظ عليها . فضلاً عن حفظها من الله – تعالى – . وحين انتهى من هذه المباحث المهمة ، تناول موضوع التطرّف في العقيدة ، والخروج عن الحق ، والتعسف ، فبين أن الإسلام بتشريعاته ومبادئه السمحة وقيمه كفيل بإنقاذ

البشرية من التطرف ومساوئه في حياة الناس .

وأشار إلى أن الإسلام هو الدين المهيمن في العالم ، وأن الله – تعالى – حين جعله آخر الرسالات السماوية ، تكفل بحفظه وسيادته في الأرض: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[1] وكتاب الله المحفوظ هو الوعاء الذي حفظ الله فيه هذه المبادئ والتشريعات التي نظمت حياة الناس ، وسيبقى ينظمها حتى تقوم الساعة . وفي مقاصد الكتاب في القرآن أورد الباحث ما يقصد بالكتاب من كونه يدل على الكتب ، وكونه لوحاً محفوظاً ، وكونه يقصد به صحائف أعمال البشر ، ويقصد به المكاتبة ، والرسائل ، والفرض والمعلومات (العلوم) ، والأدلة الشرعية ، والتشريعات الاجتماعية والقضائية ، ومقدرات الحياة من الأعمال والأرزاق ، والأعمار ، وأخبار الدنيا والآخرة ، قال – تعالى –: ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[2].

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) سورة الجاثية: ٢٩.

أما الفصل الثالث ، فكان مخصصاً بالحقائق العلمية ، كالقرآن وعلم ميكانيك التربة ، والقرآن وعلم الأرض ، والفطرة الخارقة للبناء الهندسي في عالم النحل ، ومفهوم الدابة في القرآن والسنة (دواب الأرض – دواب السماوات – الدواب الخارقة لقوانين الكون) . و(القرآن والتمايز الخلقي في حواس الإنسان) ثم (لمحات عن مفهوم الوسطية في القرآن والسنة) ثم (القرآن وعلم منطق الطير) . و(المحبة في القرآن والسنة) ثم (القرآن والفطرة الخارقة في بيت العنكبوت – البيت المادي للعنكبوت والعلاقة بين ذكر العناكب والأنثى –).. وغير ذلك مما يختص بهذا الجانب من حياة هذا الكائن الحي .

ثم تناول موضوع: (مفهوم العمل في الإسلام) ويضرب مثلاً بعمل النمل الدؤوب في جمع غذائها والحفاظ عليه ، ثم يتناول مفهوم الميزان في القرآن والسنة، ويفسر الموازين ، بأنها موازين إلهية ، وهي نوعان (كونية) و(موازين العدل المطلق في الحياة الآخرة) ولكل سمات وخصائص حاول تبيينها

وتوضيحها مع الأمثلة . أما (الموازين البشرية) الدنيوية، فأهميتها أنها لوزن الأشياء والعدل بين الناس ، قال – تعالى –: ﴿ **وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ** ﴾[1]. وذكر في خاتمة بحثه (حقيقة البعث من القبور في القرآن والسنة) وتناول إنكار الإنسان للبعث . وكيف أنذر الله – تعالى – المنكرين ، وأوعدهم بالعذاب الشديد .

لقد اعتمد الباحث على جملة كبيرة من المصادر والمراجع ذوات القيمة العلمية في موضوعات بحثه ، ككتب الدكتور خالد فائق العبيدي و(في ظلال القرآن لسيد قطب) – رحمه الله – ، وأبحاث الدكتور السباعي في مجلة الفتوى ، وبعض أبحاث العلماء كالعالم مارشال جونسون ، وغير هؤلاء مما يدلّ على أن بحث المهندس محمد محي بحث قيم، مسند بمصادر ومراجع مأمونة وموثوقة في توكيد معلوماته وآرائه خلال رسالته . إنّ هذه الرسالة – بل هي كتاب قيم – تقدّم للقارئ جملة معلومات قيمة في علوم الحياة ، وعلوم العقيدة والشريعة ، نحن

---

(١) سورة هود: ٨٥.

بأمس الحاجة إلى قراءتها ، واستيعاب مضامينها ، لأنها تمسّ حياتنا ، وتدخل في صلب سلوكنا في هذه الحياة من الاعتقاد والعمل والعلاقات بين الخالق – سبحانه – وبيننا، وتكاد هذه المعلومات تؤكد قوة الإيمان في أنفسنا ، وتفتح أمام الإنسان طريق الصلاح والوصول إلى الله – تعالى –.

أ.د. رشيد العبيدي
بغداد ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

استرعت الحقائق العلمية في القرآن الكريم والسنة النبوية أنظار العديد من العلماء المسلمين لأهميتها في هداية الناس للإسلام . وقد أعانني الله – تعالى – لطرق بعض الأبواب في مجال اختصاصي في علوم الهندسة المدنية ، ويسّر لي إضافة بعض الحقائق الأخرى التي تخص علوماً متعددة ، وقد نشرت مجلة التربية الإسلامية طيبة الذكر قسماً من هذه المقالات ، وأضفت إلى قسم منها معلومات مستحدثة حسب متطلبات الموضوع ، ونشر الدكتور المهندس خالد فائق العبيدي في كتابه المنظار الهندسي للقرآن الكريم مقالتنا حول القرآن وعلم ميكانيك التربة ، ونشرت جريدة الشرق القطرية في عددها المرقم (٥٦٥٢) في (١٣ شوال ١٤٢٤ هجرية – ٧ ديسمبر ٢٠٠٣ ميلادية) مقالاً بعنوان

موضوع البحث ومنهجه

بالنظر لتقدم الغرب في العصور المتأخرة في مجال الحقائق العلمية التي جاءت نتيجة لجهود كبيرة من علمائهم ، والتي استندت في العموم إلى أسس مادية ، إضافة إلى جهود علماء أمتنا ، استفاد منها الباحثون والمفسرون في تفسير القرآن الكريم وشرح السنة النبوية ليظهروا إعجازهما . وهذه هي إرادة الله – عز وجل – لنصر الإسلام وجعله حجة على العالمين ، حيث أثبتوا كثيراً من الحقائق العلمية في القرآن الكريم والسنة النبوية . وهو الأساس الذي قمنا عليه في قسم من كتابنا هذا ، إضافة إلى دراسات إحصائية وموضوعية أخرى . حيث تم تقسيم الحقائق الجلية التي تضمنها هذا الكتاب: إلى حقائق إحصائية وحقائق واقعية وحقائق علمية . وأرجو من الله – تعالى – أن يكون فيها الخير والبركة لنصرة هذا الدين العظيم .

الفصل الأول: حقائق إحصائية

الحقيقة الأولى: ذكر نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعجزة الإحصائية

عرّف المعجزة كثيرون وملخصها أنها خرق لقوانين الكون يمنحها الله - تعالى - لرسله ليدل على منهجه ، حيث أن قوانين البشر تقف عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيالها. ولنضرب مثلاً على ذلك معجزة نجاة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وذلك عندما أراد قومه أن يحرقوه بالنار القوية المتأججة ، ولكن الله - سبحانه - عطل قانون وخاصية الإحراق بالنار ، وجعلها برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وذلك بقوله: ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾[1]. وتقف كل القوى المحيطة بالحدث في حينه عاجزة عن أن تجعل النبي إبراهيم - عليه السلام - يحترق .

إن معجزة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حدثت في حينه أمام قومه وانتهت من دون أن تراها الأجيال التي أتت

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٩.

بعده . وكذلك جاء كل نبي من الذين عندهم معجزات إلى قومه بمعجزة مادية محسوسة من جنس ما نبغ فيه قومه حدثت في حينها وانتهت .

وأما المعجزات التي جاء بها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فقسم منها مادية محسوسة حدثت في وقتها وانتهت وهي كثيرة ومذكورة في كتب السنة ، وأخرى مخصوصة به – صلى الله عليه وسلم – وموجودة ومستمرة إلى آخر الزمان ، وحجج على الناس علمية وإحصائية لكي يتبعوا سيد المرسلين وخاتم النبيين محمداً – صلى الله عيه وسلم – . ومن هذه المعجزات القرآن الكريم وهو المعجزة الكبرى وما جاء به من العلوم التي أعطت وتعطي لكل جيل معارف متجددة ، وهي مذكورة في مؤلفات كثيرة تزخر بها المكتبات .

ومن المعجزات المخصوصة بنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – رفع ذكره المتميز في كل لحظة في أرجاء الكرة الأرضية ، وذلك لوجود أذان وإقامة وتشهد في الصلاة في كل زمن على ظهر الأرض . فمثلاً عندما يحين وقت صلاة العصر في بغداد هناك مئات الألوف من الناس

يصلون العصر ، ثم بعد زمن قصير تنتقل إلى الفلوجة ثم بعد دقائق تنتقل صلاة العصر مثلاً إلى مدينة الرمادي ثم إلى مدينة عمان . وهكذا تشع وتنتشر في عموم الأرض ، بالإضافة إلى تزامن الوقت أي أنه في وقت واحد يؤذن لله – عز وجل – على ظهر الأرض الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، لهذا فإن الله – عز وجل – مذكور في كل زمن . ومن المعلوم أيضاً أن الأوقات الشرعية للصلاة لنفس المدينة تتغير من يوم إلى آخر ، أي خمس صلوات مفروضة في اليوم من غير النوافل .

ولتقريب الموضوع إلى القارئ الكريم نضرب مثلا تقريبياً على ذلك ، حيث تدل المعلومات الإحصائية على وجود أكثر من مليار مسلم في العالم ، ولو افترضنا في أقل تقدير أن ما يقارب من (٣٦ بالمئة) منهم يؤدون الصلوات الخمس (أي أكثر من الثلث بقليل) وبذلك يتضح بعد تقسيم (٣٦٠) مليون مسلم على (١٤٤٠) دقيقة (عدد دقائق اليوم) لوجدنا – على أقل تقدير – أن ما يقارب من ربع مليون مسلم على اختلاف لغاتهم وتباين ألسنتهم يؤدون الصلاة في الدقيقة الواحدة وبلغة واحدة وهي العربية ، على

مدار اليوم ويذكرون النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم – في الأذان والإقامة والتشهد . من غير أن نضيف لها صلوات النوافل ، وصلوات المسلمين في أوقات متفرقة على مدار اليوم على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – . إنه إيقاع صوتي متناسق وبديع ومتكرر يغطي ويزداد شعاعه على عموم الكرة الأرضية ، ويتميز بحسن التوزيع متفرداً لهذه الأمة تهتز لها النفوس البشرية التي تطلب الحق .

والمهم في الموضوع هو وجود معلومات إحصائية يمكن برمجتها مهما تكن قيمتها ، وهذه المعلومات مخصوصة فقط بذكر نبينا – صلى الله عليه وسلم – يتم تهيئتها وبرمجتها وإدخالها إلى الحاسب الإلكتروني على مدار الساعة وفي عموم الأرض . ومهما تكن الأرقام المستحصلة من الحاسوب سواء أكان هذا التوزيع متركزاً بصورة كبيرة في الجزيرة العربية أم بصورة قليلة في مواقع قريبة من القطبين الشمالي والجنوبي ، وذلك لتداخل الزمن و شموله مناطق أخرى تكون مكتظة بالمسلمين في نفس اللحظة ، وإن هذا البرنامج المبارك لذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – آخذ بالازدياد كلما تقدم الزمن ودخل الناس أفواجاً في دين

الإسلام .

وقد تم وضع برنامج على نظام التشغيل (النوافذ) في الحاسب الإلكتروني باسم مواقيت الصلاة ، يبين فيه مواقيت الصلاة في كثير من مدن العالم ومسجلة عليه خطوط الطول والعرض والمنطقة الزمنية . ويعتمد حساب مواقيت الصلاة أساسا على موقع المدينة على الكرة الأرضية ، كما يعتمد أيضاً على موقع الشمس بالنسبة للأرض في موقع هذه المدينة ، ويتضمن برنامج مواقيت الصلاة معلومات كثيرة ، مثل تحديد طرق حساب هذه المواقيت ، ويعرض البرنامج في شاشته الرئيسية مواقيت الصلاة ليوم واحد ، ويمكن الحصول على جداول مطبوعة لشهر واحد أو لسنه كاملة . وإن شاء الله ستكون المعلومات الإحصائية في المستقبل أكثر شمولاً ، بالإضافة لبرمجتها مع عدد نفوس المسلمين في مدن العالم ، لتبين وجود أذان وإقامة وتشهد في كل دقيقة ، إلا أنه موزع بشكل يبين وجود تغاير يعتمد على الكثافة السكانية للمسلمين المشمولين بالزمان و المكان . فمثلاً في وقت الحج وفي صلاة الظهر يتبين أن الأذان والإقامة والتشهد يشمل أكثر من مليوني مسلم في دقائق قليلة .

وبهذا تأكد ثبوت رفع ذكره المتميز والمتفرد بين البشر . لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجـــود . تحقيقـــاً لوعد الله – سبحانه وتعالى – لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في القرآن الكريم بقوله – تعالى –: ﴿ **وَرَفَعْنَا لَـــكَ ذِكْرَكَ** ﴾[1]. ونقتطف مما يقوله صاحب صفوة التفاسير فـــي تفسير هذه الآية: (أي رفعنا شأنك ، وأعلينا مقامك في الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقروناً باسمي قال مجاهد: لا أذكر إلا ذكرت معي وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينـــادي: أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفي الحديث [أتاني جبريل فقال لي يا محمد: إن ربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت: الله – تعالى – أعلم ، قال: إذا ذكرت ذكرت معي] قال في تفسير البحر المحيط: قرن الله ذكـــر الرسول بذكره – جل وعلا – في كلمة الـــشهادة ، والأذان والإقامة ، والتشهد ، والخطب ، وفي غيـــر موضـــع مـــن القرآن ، وأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به) . أي أن وعد الله – عز وجل – لنبينا الكريم متحقق ، وأن رفع ذكره

---

(١) سورة الشرح: ٤.

متفرد بهذا الإعجاز ، وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به – صلى الله عليه وسلم – دون سائر العالمين ، ولا تستطيع كل القوى الحاقدة في أرجاء الأرض وبما لديها من التكنولوجيا الحديثة والمحيطة بهذا الحدث العظيم والإعجاز الرائع في كل دقيقة أن توقف هذه المعجزة الخالدة والتي تزداد بازدياد المسلمين بمرور الزمن .

وبهذا تتضح حجة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – على الناس أجمعين لضرورة اتباع سنته . قال – تعالى –: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1]. وإن اسمه محمد – صلى الله عليه وسلم – معناه إنه محمود ومرفوع الذكر عند كثير من الناس في أرجاء الأرض بالأدلة الإحصائية المحسوسة ، وهو محمود ومرفوع الذكر عند الله – تعالى – وملائكته الكرام ، ومرفوع في هذا الوجود . قال – جل وعلا –:

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[1].

ونقتطف مما يقوله صاحب صفوة التفاسير في تفسير قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2]. (قال الالوسي: وهذا الاسم الكريم علم لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كما قال حسان:

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك "أحمد"

وقال المفسرون: بشّر كل نبي قومه بنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وإنما أفرد – تعالى – ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا – صلى الله عليه وسلم – ، فبين – تعالى – أن البشارة به

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢) سورة الصف: ٦.

عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى - عليه السلام - آخر أنبياء بني إسرائيل) .

ومن الواضح أن ذكر نبينا - صلى الله عليه وسلم - آخذ بالازدياد ، وقد بشر به قبل ولادته ، أما سيرته المحمودة قبل بعثته فتزخر بها المكتبات ، وسيرته المباركة بعد بعثته بالحق تعطر كل لسان . وإذا قيل إن هناك كثيراً من السابقين مذكورون في الكرة الأرضية أيضا بشكل متميز ؟ والجواب عن ذلك وبعد الدراسة والتحليل يتضح أما أن يكون ذكرهم في مناطق محدودة ومحصورة ، أو يذكرون بصورة غير منتظمة على مدار اليوم ، أو بلغات متعددة ينتج عنها عدم إمكانية توثيقها بفواصل زمنية متتابعة وبرمجتها قياسياً بواسطة الحاسب الإلكتروني ، لصعوبة الحصول على إحصائية منتظمة لذكرهم .

وكذلك فإن ذكر نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - في الآخرة له شأن عظيم ، يدل على ذلك حديث الشفاعة الذي يرويه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك . قال: حدثنا محمد - صلى الله عليه وسلم -: (قال إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا

إلى ربك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن قال فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيأتون موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فيأتوني فأقول أنا لها فاستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامد احمده بها لا تحضرني الآن فاحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان فأنطلق فافعل ثم أعود فاحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فأنطلق فأفعل ثم أعود فاحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب أمتي أمتي فيقول انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار فانطلق فأفعل .

ثم أعود الرابعة فاحمده بتلك ثم أخر له ساجدا فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال لا اله إلا الله فيقول وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا اله إلا الله) .

وفي الختام يتبين أن خاتم النبيين وسيد المرسلين وحجة الله على الناس أجمعين محمداً – صلى الله عليه وسلم – محمود ومرفوع الذكر في كل لحظة وبدون منافسة أحد من العالمين ، بشكل مذهل ومعجز ومتفرد ومبرمج ومذكور على شفاه ربع مليون مسلم تقريباً في كل دقيقة على أقل تقدير في بداية القرن الحادي والعشرين ، وبلغة واحدة هي العربية ، وبازدياد إلى آخر الزمان ، وأن ذكره موزع على كثير من مناطق العالم ، وتثبت رسالته المطلقة والدائمة إلى يوم القيامة أنها تناسب كل الظروف والحالات وتلائم جميع البشر على اختلاف عاداتهم وتقاليدهم ومؤيدة من قبل رب العالمين . قال – تعالى –: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

الحقيقة الثانية: حقائق عن تميز إعجاز القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله – تعالى – المنزل على رسوله سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – أراد به هداية البشرية جميعاً إلى دين الإسلام . قال – سبحانه –: ﴿ **إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾[1].

وقد تكفل – عز وجل – كتابه العزيز بتعهدات كثيرة وميزات متعددة عما سواه من الكتب ، منها حفظه ورعايته لفظاً ومعنىً من التحريف والتبديل والتغيير . قال – تعالى –: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[2]. وقال – جل وعلا –: ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾[3].

يتميز القرآن الكريم بتكرار تلاوته المتفردة في الكرة الأرضية ، وذلك لملازمة قراءة القرآن مع صلوات المسلمين الشرعية الخمسة المفروضة علينا وهي عمود الدين عندنا .

---

(١) سورة الإسراء: ٩.

(٢) سورة الحجر: ٩.

(٣) سورة البروج: ٢١-٢٢.

وبالنظر لاعتماد مواقيت الصلاة على جريان الشمس بالنسبة لمواقع المدن على الكرة الأرضية تظهر لنا حقائق رقمية مدهشة تثبت حجة على العالمين . ولتوضيح هذه الحقيقة نقوم بتسليط الضوء على هذا الإعجاز مبتدئين بضرب مثل من بغداد ، فعندما يحين وقت صلاة العصر فيها يؤدي مئات الألوف من المسلمين هذه الفريضة المباركة، ثم ينتقل وقت إقامتها بعد دقائق قليلة إلى مدينة الرمادي ثم إلى عمان وبعدها إلى القاهرة وهكذا تنتشر في عموم الأرض .

تشير المعلومات الإحصائية إلى وجود أكثر من مليار مسلم في العالم في الوقت الحاضر ، ولو افترضنا في أقل تقدير أن ما يقارب من (٣٦ بالمئة) منهم يؤدون الصلوات الخمس (أي أكثر من الثلث بقليل) وبعد تقسيم (٣٦٠) مليون مسلم على(١٤٤٠) دقيقة (عدد دقائق اليوم) لوجدنا – على أقل تقدير– أن ما يقارب من ربع مليون مسلم على اختلاف لغاتهم وتباين ألسنتهم يتلون القرآن متعبدين في صلاتهم في الدقيقة الواحدة ، ويقرؤون سورة الفاتحة مع بعض آيات القرآن كل حسب طاقته وعلمه وما يسره وسهله

الله عليه . وهنالك الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولكنه يحفظ القرآن في قلبه ويعطر لسانه به في الصلاة وغيرها ، وهنالك العالم الذي يقرأ ويحفظ كل القرآن وما بين الأمي والعالم عموم المسلمين بالبركة . حتى إن كثيراً من أطفال المسلمين يتلون سورة الفاتحة أو بعض قصار السور . قال - تعالى -: ﴿ **فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾[1].

وينتج عن هذه الحقيقة الملموسة والتفرد المعجز أن القرآن الكريم هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم ، وبدون منافس إلى يوم القيامة حيث ختمت به الكتب السماوية وتحقيقاً لوعد الله – جل وعلا – لكتابه العزيز بقوله: ﴿ **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ﴾[2]. يقول صاحب الظلال: (أي المذكور المشهور . وهو وصف أصيل للقرآن) . وهو بكل تأكيد أيسرها حفظاً ، حيث أن الأميين من العرب المسلمين يحفظون ما تيسر منه ، بل إن الأميين المسلمين من غير العرب يحفظون ما تيسر منه ، وإن الإعجاز الأكبر أنهم يحفظونه باللغة العربية لأنه جزء مهم من صلاتهم .

---

(١) سورة المزمل: ٢٠.

(٢) سورة ص: ١.

كما وتؤكد هذه الحقيقة الملموسة أن تيار القرآن المتواصل الحركة مع جريان الشمس وصلوات المسلمين في كل لحظة وانتقالها من بقعة إلى أخرى في هذه الأرض له إيقاع صوتي متناسق (ترتيل أو تجويد) بديع ومتكرر ومتميز ومتفرد لهذه الأمة وبلغة واحدة وهي العربية وحجة على جميع الأمم بضرورة إتباع القرآن وإعجازه البالغ بكل عظمته ومسايرته لتطور العلوم البشرية، بحيث لا يوجد فيه نص من النصوص يناقض حقيقة علمية ثابتة .

وقد ميز الله – جل جلاله – كتابه المجيد بجعله جامعاً للمصالح الدينية والدنيوية بانت معانيه ووضحت أحكامه وتجلت روعته في النحو والقصص القرآني وعلم التجويد وقواعد وآداب الترتيل والتلاوة وأعلى طبقات البلاغة معجزاً للذين يفهمون لغة الكتاب . قال – سبحانه –: ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

وتعهد – عز وجل – تعليمه للمسلمين منذ بداية نزوله وقيام نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بتعليم مجتمع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بعلومه المباركة .

---

(١) سورة فصلت: ٣.

ثم جاءت فترات لاحقة ألهم الله – تعالى – التابعين ومن جاء بعدهم إلى عصرنا الحاضر السعي للإلمام بالمعرفة الحديثة ومنها علوم الإحصاء والحاسبات وشبكة المعلومات وسجل القرآن على أقراص متنوعة شاملاً تفاسيره الكثيرة ومعاجمه المتميزة وبلغات متعددة ووجود أنظمة رياضية رائعة في برمجة حروفه وكلماته وعلومه المتنوعة الشاملة التي تأخذ بالألباب ، وسيعلم ويلهم المسلمين في المستقبل وإلى يوم القيامة . قال – جل جلاله –: ﴿ **الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾(١). وقال: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾(٢).

ومن المؤكد أن الله – تعالى – جعل في القرآن موعظة وتذكيراً وعلوماً واضحة ساطعة مناسبة للسابقين الذين عاصروا نزول القرآن والمعاصرين واللاحقين إلى يوم القيامة ، لأنه جاء لينذر كل إنسان حي في زمن حياته . قال

---

(١) سورة الرحمن: ١-٢.

(٢) سورة القيامة: ١٨-١٩.

– عز وجل –: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ* لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[1].

لقد أعطى الله – سبحانه – الحجة للمسلمين والأدلة القاطعة و البراهين الساطعة للدعوة العلمية الحسنة وذلك لوجود أكثر من ألف آية تشير إلى حقائق علمية في القرآن ، في مجال العلوم الطبية والفلكية والهندسية وعلوم البحار وعلم الأرض والنبات والحيوان والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والحاسبات والإحصاء ... إلخ . لذلك فالدعوة مفتوحة لعلماء المسلمين لتفسير القرآن وتعليمه للبشرية كل حسب اختصاصه وخلال عمره القصير . وتبين الحقيقة الملموسة أنه مهما تدرج الإنسان في نيل الدرجات العلمية والتأليف والتجارب الشخصية ، يبقى علمه قليلاً مقارنة بمجموع العلوم المكتشفة وغير المكتشفة ، وهذا يؤكد أن الذي يكتب في كل العلوم والمخلوقات هو خالق هذه المخلوقات وموجد هذه العلوم جلت قدرته . وهذا يؤكد أيضاً صدق رسوله النبي الأمي الأمين – صلى الله عليه وسلم – الذي نزل عليه القرآن وسط قوم أميين فأصبحوا خير أمة

---

(١) سورة يس: ٦٩-٧٠.

أخرجت للناس . يبين ذلك قوله – جل وعلا –: ﴿ **قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾[1].

وقوله: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾[2].

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾[3].

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾[4]. وأكد – تعالى – ذلك بقوله في سورتي الروم و الزمر: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ .

وقد جعل الله – سبحانه – التميز والنصر للمسلمين بسهولة استنتاج الترابط العلمي الوثيق بين الحقائق القرآنية ومختلف العلوم ، ويسر استخراج جوهر القرآن وإعجازه القادر على العطاء بما يتلاءم وعلوم ذلك العصر . ولو أخذنا يسر التلقي والإدراك في العصر الحاضر لوجدنا أن

---

(١) سورة المائدة: ١٥.

(٢) سورة النحل: ٨٩.

(٣) سورة الإسراء: ٨٩.

(٤) سورة الكهف: ٥٤.

القرآن يتلى في الليل والنهار في المساجد والمدارس والبيوت ومجالس الذكر والعزاء وختمة القرآن والخطب والمحاضرات ومحطات الإذاعة والتلفزيون والحاسوب وشبكة المعلومات والهاتف النقال وعموم المناسبات الأخرى، إذ يتكرر تلقيه على نطاق واسع وهذا اختصاص معجز أيضاً يتميز به القرآن وحده .

لقد أكد الله – عز وجل – ذلك أربع مرات في سورة القمر بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ .

تكفل الحق – تعالى – بأن يكون للقرآن الكريم الهيمنة على الكتب السماوية التي سبقته ، كما تعهد – عز وجل – بأن يكون المرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس ونظام حياتهم ، وهذا يتبين جلياً واضحاً في إعجاز علومه وإعجاز النظم والأداء الصوتي فيه ودقة أحكامه وكثرة تفاسيره وتراجمه وكثرة أسمائه واهتمام البشرية به ، بحيث لا يعلم إلا الله – جل جلاله – وحده كم يبلغ ما وضع من علوم لخدمة كتابه الكريم ، ومهما تكلمت البشرية في القرآن فإنه يبقى معجزا لها . قال – تعالى –: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً**

عَلَيْهِ ﴾[1].

وعندما يري الله – عز وجل – البشرية هذه الميزات الجلية المباركة والحقائق العلمية الناصعة في كتابه الحكيم فإنه نصر عظيم للمسلمين . قال – سبحانه –: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[2].

ويتميز القرآن الكريم بالتزام المسلمين الثابت بعدم مس المصحف إلا من كان متوضئاً طاهراً تنفيذاً لأمر رب العالمين القائل في محكم كتابه: ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾[3].

وفي الختام نسأله – تعالى – التوفيق لتوضيح كون القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد والصوت المنفرد للحق بهذا الإعجاز ، والذي له أثر عظيم في الحياة اليومية للمسلمين ، لأنه يتلى بصورة منظمة و إيقاع صوتي فريد ومبرمج في كل لحظة من خلال صلوات المسلمين المرتبطة بطهارة

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) سورة فصلت: ٥٣.

(٣) سورة الواقعة: ٧٧-٧٩.

ونظافة الجسم والملبس والمكان وباتجاه واحد وهو موقع الكعبة المشرفة وبخشوع وسكينة بالغة ، وفيه دعوة البشرية للفلاح من قبل أكثر من ربع مليون مسلم في الدقيقة الواحدة.

إن بقاء القرآن الكريم متميزاً بخصائص العظمة والإعجاز التي أودعها فيه المنزل الحكيم لدليل ساطع على أن الإسلام هو الدين الطبيعي للبشرية . قال – عز وجل –: ﴿ **فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾(١).

---

(١) سورة هود: ١٤.

الفصل الثاني: حقائق واقعية

الحقيقة الأولى: حقائق عن ذكر الله – تعالى – وتسبيحه

ورد ذكر الله – تعالى – وتسبيحه كثيراً في القرآن والسنة .

والذكر هو ما يذكره الإنسان بلسانه أو ما يخفيه في قلبه.

أما التسبيح فهو تعظيم وتقديس وتنزيه الله – عز وجل – والتبرئة من النقائص ومن كل عيب لكل مخلوقات هذا الكون، من الخلية ومكوناتها والذرة وأجزائها إلى المجرة وموجوداتها ، فعندما يسبح الإنسان فهو مخير ويذكر الله – سبحانه – مطيعاً له ، وعندما تسبح السماوات والأرض ومن فيهن وكل شئ في هذا الوجود فإنها خاضعة ومسيرة بموجب أنظمة دقيقة وقوانين محكمة قدرها الله – عز وجل – بإتقان عجيب . وقد أراد – سبحانه – من الإنسان أن يذكره كثيراً ويسبحه في أول النهار وآخره وفي مختلف الأوقات لقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا**

اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً* وَسَبِّحُوهُ بُكْـرَةً وَأَصِيـلاً ﴾[1]. وقـوله: **﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـذا بَاطِـلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾**[2].

وقد التزم المسلمون بهذا الأمر الرباني وتميزوا بـأنواع الذكر وكثرة التسبيح . وقبل بيان أنواع الذكر نسلط الضوء على حقيقتين تخص الذكر . أولهما: أهمية نطق اللـسان . قال – جل جلاله –: **﴿ وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَـدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾**[3]. وتتضح أهمية القسم حيث أقسم – تعالى – بذاتـه الكريمـة وهو رب السماء والأرض وما خلق فيهمـا مـن العظمـة والاتساع وأن ما وعدكم به من الرزق وأحوال يوم القيامـة لحق كائن لا محالة ، مثل نطق ألسنتكم على صغر حجمها . وتتجلى أهمية اللسان في عملية الكلام كونه أهم العناصر في نطق الحروف مساهمة مع الأعضاء الأخرى التي تـشترك

---

(١) سـورة الأحـزاب: ٤١-٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٩١.

(٣) سورة الذاريات: ٢٢-٢٣.

في صياغة نغمة الحروف وإكسابها خاصية صوتية تختلف عن غيرها . وتوجد أجهزة متخصصة للتحقق من الصوت والتعرف على الشخص وقد أكد – عز وجل – ذلك بقوله: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾[1]. أي ومن معجزاته خلق السماوات والأرض بهذه الروعة والسعة وذكر معهما اختلاف الألسنة على صغرها لما تنطوي عليه من الأهمية . بل إن لسان الإنسان الناطق بذكر الله – تعالى – على الرغم من صغره له ميزات عظيمة عند الله – جل جلاله – . وقد سأل الصحابة الكرام نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أي المال خير فنتخذه فقال: (أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه) [حديث حسن رواه الترمذي] . وقال رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم –: (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده) [صحيح البخاري] . إن هذا الوصف الرائع الدقيق من خاتم الأنبياء والمرسلين وضربه هذا المثل البديع يعطى فكره متكاملة عن

---

(١) سورة الروم: ٢٢.

خفة الذكر على اللسان ومدى ثقله في ميزان الحساب يوم القيامة .

أما عن ذكر الله – عز وجل – في القلب و اللسان قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –: (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) [صحيح البخاري] .

وثانيهما: حقيقة علمية هامة لها أفضل العلاقة بالذكر بينها القرآن الكريم ، وكان أول كتاب ينبئ البشرية بها ، حيث أن العضيلات التي تحيط بالشعرة من جذورها في الجلد تتقلص حين يشعر المرء بخطر أو مفاجئة غير متوقعة. والجلد يتفاعل مع المحيط حسب الشعور المؤثر به، وهو ما يسميه العلماء بعملية القشعريرة الآنية والتي تزول بزوال المسبب ، حيث قال – تعالى – عن أصحاب القلوب المطمئنة بذكر الله والذين تلين جلودهم حين سماع القرآن: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ**

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[1].

ويتضح أن ذكر الله – عز وجل – يخص الإنسان ويعني التذكر والاستحضار الدائم لجلال الله – سبحانه – في السر والعلن وفي الصغيرة والكبيرة وفي الحركة والسكنة وفي العمل والنية في الصلاة وفي غير الصلاة في اللسان والقلب.

وهناك أنواع كثيرة للذكر متميزة عند المسلمين مثلاً عن ذكره – تعالى – في الصلاة قال: ﴿ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾**[2]. وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**[3]. وتتميز الحقيقة في الصلاة حيث يتجلى فيها أكبر الذكر وذلك لقوله – سبحانه –: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾**[4]. ويتضح هذا الذكر من خلال مواقيت الصلاة الخمسة المفروضة علينا وذلك لاعتمادها على جريان

---

(١) سورة الزمر: ٢٣.

(٢) سورة الأعلى: ١٥.

(٣) سورة الجمعة: ٩.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٥.

الشمس كما ذكرنا في مقالة سابقة . يتبين من خلالها أن ذكر الله – تعالى – عند المسلمين مستمر على مدار الساعة ، وأن ما لا يقل عن ربع مليون مسلم في الدقيقة يذكرونه متعبدين في صلاتهم ، وينتشر في الأرض حسب الزمان والمكان من غير النوافل ومجالس الذكر والعزاء وختمة القرآن والخطب والمحاضرات وعموم المناسبات الأخرى . وكذلك ينتقل ضوء الشمس على الأرض من خط طول إلى خط طول آخر خلال أربع دقائق وإن المؤذن الذي يستغرق في الأذان ما متوسطه أربع دقائق ما أن يكاد ينتهي عن ذكر الله – عز وجل – وذكر النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في أذانه حتى يبدأ مؤذن آخر على خط طول آخر .

أما بالنسبة للزكاة المتميزة بنظامها المالي المتكامل والتي يتجلى فيها شكر الله – جل جلاله – وذكره لنعمة المال فقد أوجبها – تعالى – في آيات كثيرة . مثل قوله: ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾(١). وقوله: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾(٢).

---

(١) سورة الروم: ٣٩.

(٢) سورة الأعلى: ١٤-١٥.

أما في مجال ذكره – جل وعلا – عند الصوم فتتجلى حقائق معلومة عند المسلمين ، وذلك بالتزامهم الثابت في صيام شهر رمضان وذكره – عز وجل – بصورة تنظيمية مبرمجة في فطورهم الذي يتم مع بداية أذان المغرب ، حيث يفطر ما يقارب من ربع مليون مسلم في الدقيقة الواحدة كما بينا سابقاً وخلال فترة غروب الشمس عن مواقع المدن ولمدة شهر رمضان ، وكأنهم يفطرون على مائدة كبيرة تجمعهم في وقت واحد يذكرون الله – سبحانه – ويقولون كما قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –: (أللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله) [سنن أبي داود] . ويتجلى ذكره – تعالى – واضحاً في ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن .

أما عن ذكره – عز وجل – في الطواف حول الكعبة في الحج والعمرة وغيرها ، فإنه متواصل على مدار السنة – ليلاً ونهاراً – باستثناء أوقات الصلاة المفروضة ، ويتم عكس مدار عقرب الساعة لينسجم مع طبيعة خلق الكون وتسبيحه ، حيث تبين الحقائق العلمية أن عموم الحركة في نظام الكون هو شئ يدور حول شئ آخر عكس مدار عقرب

الساعة من الذرة التي تدور فيها الإلكترونات حول النواة وكذلك السايتوبلازم في الخلية حول النواة والغالب في دوران الكواكب السيارة حول الشمس ودوران الأقمار حول الكواكب . أي أن عموم الأشياء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة تطوف عكس مدار عقرب الساعة تسبح خاضعة لله – سبحانه – ساجدة لعظمته .

ويتجلى ذكره – تعالى – بالسعي بين الصفا والمروة على مدار السنة – ليلاً ونهاراً – باستثناء أوقات الصلاة المفروضة . ويتميز ذكره – سبحانه – بذلك الأداء الصوتي الجماعي لملايين المسلمين عند التلبية وخاصة في عرفات في أكبر مؤتمر عالمي تشهده الأرض . كما ويتصف عيدا هذه الأمة ببداية مباركة يتجلى فيها أعظم الذكر في المساجد، وذلك بإقامة صلاة عيدي الأضحى والفطر وانتقالها من مدينة إلى أخرى حسب جريان الشمس . وعن ذكر الله – جل جلاله – عند ذبح الهدي في أيام النحر شكراً له على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام ، فهو يشير إلى تميز واضح لهذه الأمة حيث تذكر الإحصائيات عن ذبح ملايين الأنعام من قبل الحجاج في موسم الحج إضافة إلى

ملايين أخرى في عموم بلاد المسلمين .

أما في موضوع تسبيح الله – جل وعلا – الموجهة للبشر، فقد جاءت آيات القرآن الكريم بصيغة التكليف أو الطلب أو الأمر أو الدعوة . مثل قوله – تعالى –: ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾[1]. وقد ذكرت بعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية أوقات محببة للتسبيح في أول النهار وآخر النهار في الغدو والآصال أو العشي والإبكار . مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ* رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ** ﴾[2]. وقوله: ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** ﴾[3]. وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول حين يصلي الغداة أو بعدها: (سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته) [صحيح مسلم] . وعند النوم قال لابنته فاطمة –

---

(١) سورة الواقعة: ٧٤.

(٢) سورة النور: ٣٦-٣٧.

(٣) سورة ق: ٣٩.

رضي الله عنها -: (تسبحين ثلاثاً وثلاثين وتحمدين ثلاثاً وثلاثين وتكبرين أربعاً وثلاثين حين تأخذين مضجعك) [صحيح مسلم] . أما عن تسبيح الله - عز وجل - كما في تسبيح السماوات والأرض ومن فيهن مثل الجبال والطير والملائكة والظواهر الكونية مثل الرعد فقد جاءت آيات القرآن الكريم الذاكرة له بصيغة التسبيح المسخر والمجبور والمسير بموجب قوانين محكمة كقوله - تعالى -: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾[1]. نعم يسبح له عالم الغيب وكل ذرة في السماوات والأرض وكل خلية في الإنسان أو الحيوان أو النبات ، والتي تسير بموجب أنظمه متقنة وتناسق مدهش وعجيب . وإن أي اضطراب في أحدها في العادة يؤثر بصورة ما في غيره ، فهل تصور أحدنا ماذا يحدث لو اختل نظام الزوجية في الكون من الذرة التي تحمل شحنات سالبة وموجبة إلى عالم النبات والحيوان وكذلك الإنسان ؟ قال - عز وجل -: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ**

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]. ومن الجدير بالذكر أن تسبيح من في السماوات والأرض ، بهذه الأنواع الكثيرة والأعداد الهائلة والتي لا يمكن إحصاؤها ، تم تمييز الطير بالتسبيح من بين جميع الحيوانات بل من بين جميع الكائنات وذلك لأهمية وعظمة التسبيح والتنظيم في كل فصيلة من فصائل هذه الطيور وذلك لقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾**[2]. ولطالما أحسست بالإيقاع الصوتي الجماعي الرائع للطيور التي تطير بجناحيها وهي محشورة أي متجمعة كل حسب فصيلته في وقتين مهمين: أحدهما قبل طلوع الشمس وذلك لتنظيم أمور معيشتها أول النهار بعد سكون وظلمة ، والآخر قبل الغروب وذلك لطلب الراحة آخر النهار وتأمين سكونهم في الليل وحماية أنفسهم من أعدائهم ، وبمنطق خاص وعجيب لكل فصيلة وهي خاضعة ومسبحة لله رب العالمين . قال –

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة النور: ٤١.

سبحانه -: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** ﴾(١).

ويتبين أن طاعة الله – جل جلاله – واتباع هدي النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك لتسبيح الله –تعالى– في أول النهار وعند النوم وفي عموم الوقت باللسان والقلب يؤدي بالمسلمين إلى انسجام وتوافق مع تسبيح الطير والكون كله لله رب العالمين .

وفي الختام وفي ظل هذه الأذكار والتسابيح المباركة لله – عز وجل – تتجلى أمامنا سورة الرعد (وهي تعد الثالثة عشر حسب ترتيب سور القرآن) بما فيها من إشراقات ولمسات وإيقاعات معبرة تذكر تسبيح الرعد وخشوع الملائكة وإرسال الصواعق المهلكة ، وبالرغم من هذا فإن هناك أصواتاً بشرية تجادل في ذات الله – جل جلاله – أو تنسب له شركاء وهو شديد المحال . كيف والبشر لا يعرفون كينونة الروح التي في أجسامهم ؟ أو بعض الأمور التي تخص أبدانهم ؟ قال – تعالى -: ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا**

---

(١) سورة ص: ١٨-١٩.

مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾[1].

وفي ظل هذه المشاهد المخيفة يبين الله – عز وجل – قدرته وسيطرته على كل من في السماوات والأرض ، ومن ضمنهم المؤمنين الذين يخضعون طاعةً وإيماناً ، وغير المؤمنين الذين تخضع جوارحهم لفطرة الله – تعالى – وظلالهم كلها ساجدة ، فما يملك أحد أن يخرج عن إرادة الله – سبحانه – ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾**[2]. وبعد هذه المشاهد الهائلة في هاتين الآيتين العظيمتين ، تتضح النتيجة الباهرة التي تحتاجها البشرية في هذه الدنيا لحياتها النفسية وسكونها مع الإسلام في الآية الثامنة والعشرين من سورة الرعد لقوله – تعالى –: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾** .

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٥.

الحقيقة الثانية: لمحات عن مفهوم (القليل) في القرآن والسنة

وردت كلمة (قليل) أو (قليلاً) أو ما يشابههما في المعنى كثيراً في القرآن والسنة ، وسنسلط الضوء في هذه المقالة على موضوعين مهمين:

أولهما: القليل في متاع الحياة الدنيا

ثانيهما: القليل في مجال العلم

ونقتطف نماذج توضح هذا القليل في متاع الحياة الدنيا من خلال الآيات القرآنية الآتية: ﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾(١).

﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾(٢).

﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٧.

(٢) سورة النساء: ٧٧.

(٣) سورة النحل: ١١٧.

﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾(١).

يقول صاحب صفوة التفاسير: (﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ ، أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ، أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شئ مستحقر قليل لا قيمة له) .

كما أشار القرآن الكريم إلى مصطلح آخر هو التمتع والذي قصد منه أجلاً محدوداً ومعلوماً وقليلاً كما ورد في آيات كثيرة نورد منها: ﴿ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾(٢).

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾(٣).

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾(٤).

كما ضرب القرآن الكريم في آيات كثيرة أمثلة عن الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال ، لم يلبثوا في

---

(١) سورة التوبة: ٣٨.

(٢) سورة هود: ٣.

(٣) سورة هود: ٦٥.

(٤) سورة الذاريات: ٤٣.

الحياة الدنيا إلا ساعة أو يوماً أو عشية أو ضحاها ، وذلك لتقريب الصورة للناس وتعريفهم قلة مدتها قياساً بالحياة الآخرة الأبدية نورد منها الآيات الآتية: ﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ* قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ* قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾(١).

أي ما أقمتم في الدنيا الزائلة إلا قليلاً مقارنة بالآخرة الدائمة.

﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾(٢).

﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** ﴾(٣).

ووصف الأعمش متاع الحياة الدنيا إنها كزاد الراكب . أي الطعام الذي يأخذه المسافر في سفرته وما يلاقيه من مشاكل في الطريق وعدم الاستقرار وما يكابده من مشاق السفر كالمرض أو التعرض للسرقات أو عراقيل الطريق وفقدانه شيئاً ما أو ألم فراق الأهل والأصدقاء أو عطل

---

(١) سورة المؤمنون: ١١٢-١١٤.

(٢) سورة الروم: ٥٥.

(٣) سورة النازعات: ٤٦.

السيارة أو الباخرة أو الطيارة وحسب طبيعة الرحلة أو مجرد التفكير في هذه الأمور أثناء رحلته هذه . وعندما يصل المسافر إلى المدينة المقصودة وينفد الطعام أي المتاع تكون نهاية هذه السفرة . نعم إنها حقيقة الحياة الدنيا متمثلة بالمتاع الزائل الذي لا ثبات له ولا دوام .

أما الآخرة فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار وهي دار الاستقرار والخلود التي لا زوال لها ولا انتقال منها ، فأما خلود في النعيم أو خلود في الجحيم . قال – تعالى –: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ** ﴾[1].

لذلك فإن إيثار الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية هو مصدر كل بلوى وسوء تقدير لا يقدم عليهما عاقل بصير . قال – سبحانه –: ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾[2]. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له) [مسند أحمد] . وجاء في صحيح مسلم أن رسول الله – صلى الله

---

(١) سورة غافر: ٣٩.

(٢) سورة الأعلى: ١٦-١٧.

عليه وسلم – مر بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفتيه [أي جانبيه] فمر بجدي أسك [أي ولد المعز صغير الأذنين] ميت فتناوله فأخذ بإذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟) فقالوا ما نحب إنه لنا بشئ وما نصنع به . قال: (أتحبون أنه لكم ؟) قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال: (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في صحيح مسلم: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ، وأشار بالسبابة في اليم فلينظر بم ترجع) . إن هذا الوصف الرائع الدقيق من خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وضربه هذا المثل البديع وقسمه بالله – تعالى – يعطي فكرة متكاملة عن مقدار ما يعلق من الماء بإصبع السبابة (متمثلة بالدنيا) مقارنة بكمية ماء البحر(متمثلة بالآخرة) وبذلك تكون النتيجة قريبة من الصفر .

ومن المعلوم في علوم الرياضيات أن كل رقم يقسم على ما لا نهاية تكون النتيجة علمياً قريبة من الصفر . وبذلك

يتضح بعد تقسيم طول عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا مهما طال ، على ما لا نهاية من طول عمره الأخروي (خلود) سواء أكانت جنة أم ناراً ، تكون فترة الحياة الدنيا من الناحية العلمية قريبة من الصفر . أي أن كل ما يكابده الإنسان في هذه الحياة الدنيا من تعب ومشقة فإنه لا يزال يقاسي أنواع الشدائد من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها فهو في مشقة وشدة من حمله ، وولادته ، ورضاعه ، وفطامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته ، أو ما يصاحب هذا الإنسان من سعادة ، وسرور ، وبهجة ، سواءً بزينة الأموال أو الأولاد أو غيرهما ، فإن مجموع عمره الحسابي هو تقريباً صفر .

وبالرغم من البون الشاسع بين الحياة الآخرة الدائمة والمتاع القليل في الحياة الدنيا ، فإن الله – تعالى – تماشياً مع الدقة القرآنية فإنه ذكر كلمة ﴿ **الدُّنْيَا** ﴾ (١١٥) مرة ، وكذلك كلمة ﴿ **الْآخِرَة** ﴾ وذلك لأهمية ﴿ **الدُّنْيَا** ﴾ وكونها دار عمل وامتحان أعطاها القرآن الكريم إحصائياً نفس عدد كلمة ﴿ **الْآخِرَة** ﴾ لأنها لا تنال إلا بها ، بالرغم من ضعتها وقصر عمرها فهي الواطية الهابطة والله أعلم .

لذلك فإن على الإنسان العاقل أن يأخذ هذه النسبة القليلة من الحياة الدنيا والمقاربة للصفر بنظر الاعتبار ، ويتفكر في حكمة الله – جل وعلا – القائل في محكم كتابه: ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾[1]. أي أن الله – تعالى – خلق طيبات الحياة الدنيا ليستمتع بها الناس ، وليعملوا في مجال العلوم والتكنولوجيا ، وليعملوا في الأرض ، فتنموا الحياة وتتجدد وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض ، على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع الدار الآخرة فيؤمنون بيوم الحساب ، ويؤدون واجبات عبادة الله – عز وجل – ولا يشغلون أنفسهم بالمتاع القليل عن تكاليف هذا اليوم العصيب . وهكذا يحقق هذا المنهج التوازن والتجانس والاستقامة في حياة الإنسان ويمكنه من الارتقاء الروحي ليكون أهلاً لتكريم الله – جل جلاله – .

أما الموضوع الآخر وهو القليل في مجال العلم ، فقد وردت فيه آيات قرآنيه منها قوله – تعالى –: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ**

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1].

ونقتطف بعض ما قاله صاحب مختصر تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية: (والمعنى أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به – تعالى – ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه – تعالى –) . وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل ولكن فيه توجيهاً لهذا العقل أن يعمل في حدوده وفي مجاله الذي يدركه . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقائق لبيان علم الله – عز وجل – اللانهائي واللامحدود نورد نماذج منها من خلال الآيات الآتية: ﴿ **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾**[2].

﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾**[3]. ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي**

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٦.

(٣) سورة الكهف: ١٠٩.

الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١). نعم لو حولت مياه كل بحار الدنيا حبراً وكتبت بها كلمات الله – سبحانه – الدالة على علمه لانتهت مياه البحر على كثرتها ، ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلمات الله – تعالى – التي تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له ولا نهاية له لا تنفد . ويضرب القرآن الأمثال للناس ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد من البحر لأنه من أوسع وأغزر ما يتصوره ويعرفه البشر من الأمور المادية المحسوسة . والذي يمثل علم الإنسان وهو على سعته وغزارته محدود .

وقد أكد هذه الحقيقة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – حين ضرب مثلاً في موضوع العلم ، مأخوذاً أيضاً من البحر في حديث طويل مذكور في الصحيحين في موضوع حديث الخضر مع موسى – عليهما السلام – ولقائهما بمجمع البحرين نقتطف منه: (فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال

---

(١) سورة لقمان: ٢٧.

له الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر) ، ما أجمل وألطف وأبدع هذا الوصف الدقيق لرسولنا الحبيب – صلى الله عليه وسلم – في مجال العلوم الإنسانية المحدودة ، مقارنة بعلوم الله – تعالى – اللامحدودة . إن هذا المثل يعطي أيضاً فكرة متكاملة عن كمية ما يأخذه العصفور من قطرات بهذه النقرة أو النقرتين من الماء مقارنة بكمية ماء البحر ، وبذلك تكون النتيجة أيضاً قريبة من الصفر .

ومن الواضح إن الإنسان مهما تدرج في نيل العلم والدرجات العلمية والتأليف والتجارب الشخصية يبقى علمه قليلاً مهما يكن إبداعه واكتشافاته وبحوثه ومؤلفاته في فترة عمره القصير ، مقارنة بمجموع العلوم كعلوم البحار وما فيها وعلوم الفضاء وما فيها من أسرار والعلوم الطبية والعلوم الهندسية والجيولوجيا وعلوم النبات والحيوان والفيزياء والكيمياء والحاسبات والعلوم الأخرى المكتشفة وغير المكتشفة وأسرار الكون لوجدنا أن النسبة أيضاً قليلة ، ولو تم مقارنتها بعلم الله لوجدناها مقاربة للصفر . بل إن المعلومات المتعلقة بعلوم الفضاء ولحد الآن لا تمثل إلا

همسة في ضجيج ، بل إن أسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشري المحدود ، ولو تم مقارنة حجم الأرض بالنسبة لمليارات المليارات من النجوم لكانت النسبة أيضاً قريبة من الصفر . قال – عز وجل –: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]. أي لخلق الله للسماوات والأرض بهذه العظمة وإنشاؤهما وإبداعهما من غير شئ أعظم من خلق البشر ، وحين يعلم الإنسان حقيقة النسب وحقيقة الأحجام والقوى يتصاغر ويتضاءل ، والعاقل منهم يفهم أن الله الذي خلق السماوات والأرض على كبرهما قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم وغلبة الجهل عليهم . وقد وعد الله – تعالى – المؤمنين برفع درجتهم والعلماء منهم خاصة أعلى المراتب ويرغب الناس في العلم ويبين أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان . قال – جل جلاله –: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[2].

---

(١) سورة غافر: ٥٧.

(٢) سورة المجادلة: ١١.

وفي الختام يتبين بالأدلة القطعية أن فترة الحياة الدنيا ومقدار علوم الإنسان قليلة بل قريبة من الصفر . فلا ننخدع وتلهنا الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها ونعيمها فنركن إليها فقط ونؤثرها على نعيم الآخرة الدائمة ، وأن نتفكر في كرم الله – تعالى – ورزقه الكثير الواسع اللامحدود في جنات الخلود جزاء لأعمالنا القليلة في هذه الحياة الدنيا الزائلة . قال – سبحانه –: ﴿ **إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ* إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1].

---

(١) سورة لقمان: ٣٣-٣٤.

الحقيقة الثالثة: القرآن والأسس

تتضمن هذه المقالة تمثيل البناء الحضاري بتشييد البنـــاء على مرحلتين ، وهما الأساس (العقيـــدة) والبنـــاء فـــوقه (التشريع) . وما تبينه هذه الدراسة المعتمدة على القـــرآن الكريم نبتدؤها بأول بيت بني في الأرض لعبادة الله – عـــز وجل – وهو بيت الله الحرام في مكة المكرمة مصدر الهداية والنور لأهل الأرض . قال تعالى: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْـــتٍ وُضِـــعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[1]. ونقتطف مما يقوله الشيخ الشعراوي في تفسير هذه الآية: (وهو أن الناس موضوع لهم البيت ولابد أن يكون واضـــعه غيـــر النـــاس والناس هم ذرية آدم – عليه السلام – وهو أبو الناس لـــذلك فإن البيت موجود قبله) . وجاء في صحيح البخاري عـــن أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قلت يـــا رســـول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال: (المسجد الحـــرام ... الحديث) . كما ورد في القرآن الكريم على لـــسان ســـيدنا إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِـــن ذُرِّيَّتِـــي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنـــدَ بَيْتِكَ الْمُحَـــرَّمِ رَبَّنَـــا لِيُقِيمُـــواْ**

---

(١) سورة آل عمران: ٩٦.

الصَّلاَةَ ﴾[1]. وهذا دليل يبين أن البيت كان موضوعاً ومؤسساً قبل سيدنا إبراهيم – عليه السلام – . ومن الطبيعي أن البناء عموماً يبدأ أولاً بالأساس ، الذي يمكن تحديد موقعه بأنه ذلك الجزء من المنشأ الذي يشيد تحت سطح الأرض وعلى عمق معين ينقل ثقل البناء الذي يقع فوقه إلى طبقات التربة التحتية بضغط ملائم لخواص التربة . ويبين القرآن الكريم حقيقة أساس هذا البيت والبناء الذي فوقه في قوله – تعالى –: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ** ﴾[2]. وقد ذكر صاحب تفسير تنوير الأذهان من تفسير روح البيان بشان هذا الرفع قائلاً: (واعلم أن رفع الأساس الذي هو البناء عليه يدل على أن البيت أي الكعبة كان مؤسساً قبل إبراهيم وإنما بني على الأساس) . وقد تأكد ذلك في قوله – سبحانه –: ﴿ **وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾[3]. ونقتطف مما قاله صاحب مختصر تفسير ابن

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.

(٢) سورة البقرة: ١٢٧.

(٣) سورة البقرة: ١٢٥.

كثير: (إن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبـــراهيم – عليه السلام – يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار) .

وتدل الوقائع التاريخية أيضاً على أن جدران البيت بنيت أكثر من مرة على نفس الأسس ، أهمها سنة خمس وثلاثين من مولد النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – . ونقتطـف مما قاله صاحب كتاب الكامل في التاريخ: (حتـى انتهـى الهدم إلى الأساس ثم يستطرد قائلاً: ثـم جمعـوا الحجـارة لبنائها ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضـع الـركن) ، وبقيـة القصة معروفة حيث أخذ الأمين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثوباً ووضع الحجر الأسود فيه ثم قال: لتأخـذ كـل قبيلة بناحية من الثوب ثم رفعوه جميعاً فلما بلغوا به موضعه وضعه بيده الشريفة .

ونتواصل في موضوع هذه الدراسة بضرب مثل علـى أهمية العلاقة بين بناء الجدران والـسقوف المتمثـل فـي التشريع بقوله – جل وعلا –: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِـنكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾[1]. يقول صاحب تفسير صفوة التفاسـير: (أي لكل أمة جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً خاصاً بتلك الأمة

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

قال أبو حيان: لليهود شرعة ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحد لجميع الناس توحيد وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء) .

ولربط موضوع العقيدة والتشريع نضرب مثلاً على ذلك أحد الثوابت في علوم الهندسة المدنية ، وهي أن أسس المنشآت إذا كانت سليمة من ناحية التصميم والتنفيذ ، فإن التغيير والتحوير والإعادة ممكن أن تحصل في عموم البناء فوق هذه الأسس ، مثل بناء الجدران والأبواب والشبابيك وأعمال الإنهاء وحتى في مجال هطول السقوف كل حسب تصميمه . أما إذا كان هناك انهيار أو هبوط تفاضلي في الأسس خارج حدود المواصفات المعتمدة وفي طريقه إلى الانهيار فمن الأفضل في مثل هذه الحالات ، هو قلع البناء المنشأ من أساسه وإنشاء بناء بديل بموجب المواصفات القياسية المعتمدة . وكذلك عقيدة التوحيد إذا كانت سليمة وثابتة فإن بناء التشريع (بالرغم من الصعوبات التي تواجهه) ممكن لأنه يستند على أساس ثابت ورصين . ويضرب القرآن الكريم مثلاً دقيقاً لموضوع البناء على

الأسس السليمة وهي تقوى الله – عز وجل – . والبناء على الأسس غير السليمة المنشأة على جوانب وحافات مشرفة على الانهيار والسقوط وهي الكفر والإشراك وتكون نتائجها في نار جهنم . وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾[1]. يقول صاحب تفسير الجلاليـن: (﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى** ﴾ مخافة ﴿ **مِنَ اللّهِ و** ﴾ رجاء ﴿ **رِضْوَانٍ** ﴾ منه ﴿ **خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا** ﴾ طرف ﴿ **جُرُفٍ** ﴾ بضم الراء وسكونها جانب ﴿ **هَارٍ** ﴾ مشرف على السقوط ﴿ **فَانْهَارَ بِهِ** ﴾ سقط مع بانيه ﴿ **فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ خير تمثيل للبناء على ضد التقوى بما يؤول إليه، والاستفهام للتقرير ، أي الأول خير وهو مثال مسجد قباء والثاني مثال مسجد الضرار) .

ويضرب الله – عز وجل – مثلاً آخراً رائعاً يأخذ بالألباب لطريقة ما يحل بالكفار والمشركين مقارنة بانهيار أسس الأبنية وسقوط سقوفها إذ يقول في محكم كتابه: ﴿ **قَدْ**

---

(١) سورة التوبة: ١٠٩.

مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (﴿ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ، وهذا تسلية له – صلى الله عليه وسلم – ﴿ **فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ** ﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأسسه ، وهذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من مكر بالرسل ﴿ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** ﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدم البناء وماتوا ﴿ **وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط) .

إن الشريعة الإسلامية المتمثلة في الجدران والأبواب والشبابيك والسقوف في هذا البناء الرائع أثارت حقد دول العدوان السائرة في ركاب الصهيونية بمكرهم الخبيث

---

(١) سورة النحل: ٢٦.

ووسائلهم المدمرة وعلومهم التي استعملوها في الباطل ، مما تسبب في ابتعاد أكثرية المسلمين لفترات زمنية معروفة عن هذه التشريعات المباركة و خصوصاً في زمن الاستعمار ، ولكن الله – جل وعلا – بعظمته حفظ القرآن الكريم من التحريف ، مما كان سبباً في بقاء أساس عقيدة التوحيد الثابت لهذه الأمة بكل جدارة متفرداً ومتميزاً في هذه الأرض بأسس أمينة ومستقرة ، وجعل المستقبل لها بالرغم من اجتماع القوى الحاقدة ضدها . وإن بناء التشريع المتمثل بالجدران والأبواب والسقوف وأعمال الإنهاء بموجب المواصفات الإسلامية في هذا البناء الشامخ الذي يتوافق مع نواميس الكون وفطرة الوجود ويتوازن بين الإبداع المادي والاستشراق الروحي آت لا ريب فيه ما دامت الأسس سليمة.

أما بالنسبة لدول المكر والعدوان الذين قام بناؤهم وتشريعهم متمثلاً في جدرانهم وأبوابهم وسقوفهم على أسس عقيدة الكفر والشرك المتصدعة ، فإنها متهدمة ومنهارة لا محالة نتيجة للأسباب المذكورة وبحكم الواقع الملموس الذي انهارت بموجبه حضارات كثيرة سادت بتقدمها في مجال

العلوم المادية كل حسب عصره ثم بادت بسبب عقائدها الباطلة ، وآخرها انهيار الاتحاد السوفيتي السابق عام (١٩٩١ ميلادي) الذي استند على الفكر الاشتراكي .

وهذه السنن الكونية ماضية في الحضارات التي تؤسس على الشرك والكفر ويقوم بناؤها على أسس متصدعة ، وهذا يتمثل واضحاً في الحضارة الغربية المعاصرة ، وذلك بتسجيلها الأرقام القياسية في مجال تعاطي المخدرات والخمور وانتحار المراهقين وفسادهم وارتفاع نسبة الجرائم والعدوان والتحلل الجنسي وما ينتج عنه من مفاسد تعصف بحياة الأسرة حتى تؤدي بهم إلى الهلاك . وإن انحطاط حضارة الغرب وكل حضارة تقوم على أسس عقائد الشرك والكفر آت لا ريب فيه ، ويتجلى ذلك في أهل الغرب وهم يعيشون اليوم حياة الضنك وهو ضنك نفسي لا يخفف من آثاره التقدم المادي ولا التكنولوجي والاقتصادي قال – عز وجل –: ﴿ **فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾[١].

---

(١) سورة التوبة: ٥٥.

أما التمكين المادي والعلمي لهذه الحضارات الجاهلية بعمرها القصير المحدود وهم على ضلال فإنه يجري وفق سنن الله – تعالى – القائل في محكم كتابه: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ** ﴾[1].

أما الحضارة الإسلامية فإنها منذ نزول القرآن الكريم ولحد الآن فهي باقية ، وعمرها طويل ، وتستند على أسس ثابتة وسليمة . والأدلة على ذلك كثيرة نختصرها بالحقائق الآتية ومنها: أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في العالم ويتوجه أكثر من ربع مليون مسلم في الدقيقة باتجاه الكعبة المشرفة لأداء الصلاة ، وتتصف بوجود أكبر مؤتمر عالمي في موسم الحج ، وحفظ القرآن الكريم بقوة الله – عز وجل – وكونه أكثر كتاب يقرأ في العالم وذلك لملازمته صلوات المسلمين الخمسة المعتمدة على جريان الشمس ، وينتج عن ذلك أيضاً رفع ذكر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الأذان والإقامة والتشهد حيث يذكره المسلمون في صلواتهم بهذه الأعداد الهائلة في كل لحظة ، إضافة إلى صيام

---

(١) سورة هود: ١٥.

المسلمين شهر رمضان المبارك ، وزكاة المقتدرين مـــنهم . وينتج عن تنفيذ المسلمين لأركان الإسلام المذكورة أكبر ذكر لله – تعالى – في هذه الأرض منسجماً مع ســـجود الكـــون وتسبيحه لله العظيم .

الحقيقة الرابعة: مفهوم الرحم ومتعلقاته في الإسلام

وردت كلمة الأرحام ومشتقاتها كثيراً في القرآن والسنة ، يقول الالوسي في تفسير روح المعاني: (والرحم في الأصل رحم المرأة واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها) .

ومن المعلوم أن دخول شوكة غريبة في الجلد يعرضه للورم واحتياجه للمداخلة الجراحية بغية إخراجها ، ولكن الرحم بعد تلقيح البيضة تحدث فيه تغيرات مذهلة ورباطات مثبتة للجنين وتغذية مدهشة ثم بعمليات عجيبة وحركات دقيقة يتم إخراجه عندما تحين الولادة . قال – تعالى –: ﴿ **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** ﴾[1].

وإن إرسال الملك لنفخ الروح بكل إعجازها وعظمتها يتم داخله . يقول النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – حول جمع الخلق في بطن الأم: (ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح... الحديث) . [رواه مسلم] .

ومن رقة الرحم أن الأم عندما تتعرض لطقس يتميز بدرجات حرارة عالية أو منخفضة فإن جنينها يبقى متنعماً

---

(١) سورة الحج: ٥.

في نفس درجة حرارة الجسم المعتدلة . إن ولادة الطفل وخروجه من الرحم بإرادة الخالق – جل جلاله – وما يرافقها من تيسير ، إلا أنه في الحقيقة يودع ذلك العطف الكبير ويجعله يصرخ لصعوبة العيش خارجه .

وفي الحديث القدسي: (قال الله – عز وجل – أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبته) . [رواه أحمد] . وقال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –: (الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله) [صحيح مسلم] . وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه) [رواه البخاري] . وقال: (لا يدخل الجنة قاطع رحم) [رواه مسلم] . وقال: (من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه) [متفق عليه] . ومن المعاني الجميلة لهذا الحديث الشريف أن الله يبقي أثر واصل الرحم في الدنيا طويلاً فلا يضمحل سريعاً كما يضمحل أثر قاطع الرحم .

وعن الذين تشملهم و تعمهم صلة الرحم جاء في مختصر تفسير ابن كثير عن قوله – تعالى –: ﴿ **وَأُولُواْ**

الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]. (بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات) . ويقول الشوكاني صاحب تفسير فتح القدير: (والأرحام: إسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره ، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة) . ويقول القرطبي في تفسيره: (والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال) . وقال نبينا – صلى الله عليه وسلم –: (الرحم شجنة فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته) [رواه البخاري] . وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة ، وهو خير تمثيل لعلاقات القرابة وفروعها التي تخرجها الأرحام ، وهي الأصل في الشعوب والقبائل وفي أهمية الرابطة البشرية التي تربطهم . فالناس جميعاً من أصل واحدة وأن أكرمهم عند الله أتقاهم وهذا الذي يؤدي بهم إلى رحم الدين . قال – سبحانه –: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٧٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

وإن من عظمة هذه العلاقات ، فإن موت الزوجة وإن لم يكن لديها أطفال من زوجها فإن متعلقات صلة الرحم تبقى قائمة معه حيث يحرم عليه الزواج من ابنتها وذلك لقوله – جل وعلا –: ﴿ **وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ** ﴾[1].

وكذلك إن مات الزوج فيحرم على الابن التزوج بامرأة أبيه بعد وفاته لقوله – تعالى –: ﴿ **وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً** ﴾[2]. وكذلك حرم الله – عز وجل – نكاح الأب من زوجة ابنه في حالة وفاة الابن أو حصول الطلاق لقوله – تعالى –: ﴿ **وَحَلاَئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ** ﴾[3].

وجاءت كلمة الأرحام في أول آية من سورة النساء . قال – سبحانه –: ﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾ . يقول القرطبي في تفسيره: (أي

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) سورة النساء: ٢٢.

(٣) سورة النساء: ٢٣.

اتقوا الله وحق الرحم وقد اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة) . ولروعة صلة الرحم فإنه كان أحد الأوصاف التي وصفت فيها سيدتنا خديجة – رضي الله عنها – زوجها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين نزول الوحي عليه أول مرة وقال له: ﴿ **اقْرَأْ** ﴾ قالت له: (والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ... الحديث) [رواه البخاري] . وجاء في سورة محمد – صلى الله عليه وسلم – قوله – جل جلاله –: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ** ﴾[1].

ونحن نعلم عواقب الإفساد في الأرض ، وكذلك هو العقاب في قطع الأرحام التي ورد ذكرها في سورة محمد – صلى الله عليه وسلم – لما فيها من إشارة إلى ضرورة برها وصلتها وذكرها بخير . وأهم الأرحام في شجرة المسلمين المباركة ، هي الخاصة بالمؤمنين من أقارب سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – . لقد ألفت كتب كثيرة عن هذا الموضوع ، ولكننا سنركز في هذه المقالة على صلات

---

(١) سورة محمد: ٢٢-٢٣.

الرحم ومتعلقاتها من القرابة وعلاقة النسابة عند نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – مع الخلفاء الراشدين الأربعة – رضي الله عنهم – أجمعين .

وفي الحقيقة أن العموم في علاقة النسيب حين الزواج من ابنة العائلة تجعله يشترك معها بصلة قائمة على الود والمحبة والرحمة . وتكون أم الزوجة محرمة عليه كحرمة أمه لشمولها بالمحرمات وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ** ﴾[1]. وتكون أخت الزوجة محرمة عليه حرمة مؤقتة تزول بعد الطلاق أو الوفاة لقوله – سبحانه –: ﴿ **وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾[2]. وكذلك عمة وخالة الزوجة . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها) [صحيح مسلم] . وتصبح درجة قوة علاقة النسيب بالعائلة تعتمد على أخلاقه وسيرته بينهم ، أما إذا كان النسيب نبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم – والذي يقول الخالق – عز وجل – بحقه:

---

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) سورة النساء: ٢٣.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. فالموضوع يصبح مهماً جداً في حياة الأمة ، فقد تزوج نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من عائشة بنت الخليفة الراشد الأول أبي بكر – رضي الله عنهما – وكذلك تزوج من حفصة بنت الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – ، وزوّج النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ابنته رقية من ذي النوريين عثمان بن عفان – رضي الله عنهما – وعندما ماتت زوّجه ابنته أم كلثوم وهن بنات خديجة وأخوات فاطمة الزهراء البتول – رضي الله عنهن – وقد كن من ضمن المخاطبات بقوله – تعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ** ﴾[2]. والمراد ببناتك الجمع وأقل الجمع ثلاثة وبنات الرسول – صلى الله عليه وسلم – كن أربعاً . وزوّج ابنته فاطمة الزهراء والدة سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي نبي هذه الأمة – صلى الله عليه وسلم – الحسن والحسين –

---

(١) سورة القلم: ٤.

(٢) الأحزاب: ٥٩.

رضي الله عنهم أجمعين – من ابن عمه الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – .

إن الله – عز وجل – يقول بشأن الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين –: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾[1]. وهذا إلزام تكليف وتشريف لأن الله – تعالى – اختارهم لدينه وصحبة نبيه – صلى الله عليه وسلم – وذلك لإخلاصهم وطاعتهم لله – عز وجل – ورسوله – صلى الله عليه وسلم – والله – تعالى – عالم بمن هو أهل للفضل ، وخاصة في هذه الصلات الرحمية المباركة ومتعلقاتها بين النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه وقرابته – رضي الله عنهم – التي كانت تهيئ بيوتهم لاستقبال بعضهم البعض ضمن الأحكام الشرعية ، والتواجد مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – في بيوته للتشاور في مصلحة الإسلام والمسلمين ، والأخذ بهم إلى سلم العز والمجد والرقي والحضارة المباركة وأنها تمت بمشيئة عالم الغيب والشهادة القائل في محكم كتابه: ﴿

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[1]. نعم إن الله – جل جلاله – يحصي ويعلم سقوط كل ورقة في هذه الأرض والتي لا يحصيها عد البشر . لذلك فإنه من الطبيعي يعلم ويحصي ويبارك هذه الصلات الرحمية المهمة ومتعلقاتها وأنها تمت بإرادته . وكذلك فإن الحجرة التي دفن فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع صاحبيه أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – وما اكتسباه من ذكر ومنزلة رفيعة تفوق الوصف ، حيث يسلم عليهما ملايين المسلمين من جميع أنحاء العالم في مناسك الحج والعمرة وفي بقية أيام السنة لفضلهما ، وذلك عندما يأتي المسلمون ليسلموا على نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وليعلموا أن هذه الغرفة التي تحتوي قبورهم الشريفة تمت بمشيئة الله – عز وجل – القائل في محكم كتابه: ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

(٢) سورة لقمان: ٣٤.

الحقيقة الخامسة: مفهوم المكر في القرآن الكريم

وردت كلمة (**مكـــر**) أو في معنى المكر كثيـــراً فـــي القرآن الكريم ، ومكر البشر يعني الكيد والخداع والدسيـــسة وأكثره سيئ ، ويتم عادة بكتمان وخفية ويدل على الـــضعف البشري لأن القوي يواجه الموقف ، وهي صفات توجد فـــي العموم عند الذين لديهم مقدرة جيدة من الذكاء والفطنة .

أما الإسلام فقد أباح المكر والخدعة فقط فـــي الحـــروب التي يخوضها المسلمون في العادة لرد العدوان عنهم . قـــال النبي محمـــد – صـــلى الله عليـــه وســـلم –: (الحـــرب خـــدعـــة) [متفق عليه] .

ولكن في حالة وجود مواثيـــق ومعاهـــدات مـــع غيـــر المسلمين فقد أمر الإسلام بعدم المكر والالتزام بِـــالمواثيق . قال – تعالى – في هذه الآية الكريمة والأجدر كتابتها علـــى واجهات محاكم العدل: ﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾[1].

أما مكر الله – جل وعـــلا – فيعنـــي اســـتدراج العبـــاد الماكرين عندما زاغت قلوبهم عن الحق فأخذهم الله – عـــز

---

(١) ســـورة الأنفال: ٧٢.

وجل – ودمرهم من حيث لا يعلمون . قال – سبحانه – ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[1].

والمكر والخديعة تجري في العموم من قبل المستكبرين بعمل دؤوب ومستمر . قال – تعالى – ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ** ﴾[2].

وإن الله – عز وجل – هو الذي يجعل ويُصير أكابر المجرمين والمختوم على قلوبهم في كل قرية أن يمكروا ويخدعوا المؤمنين ، وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيط بهم لأنه ليس خافياً عن متناول قدرة الله – جل وعلا – بحيث لا يدع الظالم يفلت وينجو بنفسه . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾[3]. وقال عن المكر الكبير في الغاية عند قوم النبي نوح – عليه السلام –: ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً** ﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

(٢) سبأ: ٣٣.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٣.

(٤) سورة نوح: ٢٢.

إضافة لكل ذلك فإن الشيطان يزين للكافرين ذلك المكر السيئ ويريهم أن أعمالهم الإجرامية حسنة في نظرهم ليمنعهم عن طريق الهدى . قال – سبحانه –: ﴿ **بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾[1]. لذلك وصف الله – عز وجل – قسماً من مكر المجرمين بالقوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال بالرغم من ثقلها وامتداد جذورها . قال – تعالى –: ﴿ **وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** ﴾[2].

ولكل هذه الأسباب المذكورة فإن المكر السيئ والخداع الكبير والاستكبار في الأرض الذي يتعرض له المسلمون في العالم والضرر الواقع بهم ، يتطلب إسناد الله – عز وجل – ومكره للدفاع عنهم لذلك سلط الملائكة لتسجيل المكر . قال – جل جلاله –: ﴿ **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** ﴾[3]. وكذلك فقد عجل عقوبتهم على جزاء مكرهم فقال – سبحانه –: ﴿ **قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً** ﴾[4]. وطمئن المؤمنين

---

(١) سورة الرعد: ٣٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٦.

(٣) سورة يونس: ٢١.

(٤) سورة يونس: ٢١.

من كيد الكفار وأن مكرهم مردود عليهم . لقوله – تعالى –: ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾[1]. وقوله: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** ﴾[2]. وكذلك قوله وهو يذكر المسلمين في كل حين عن مظالمهم التي تحدث نتيجة مكر الأعداء بهم بما قاله للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – من قبل: ﴿ **وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾[3].

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة عن الأساليب والنتائج لمكر المجرمين وأن عقوبتهم كل بما يستحق ، كقوله – تعالى – عن استئصال قوم النبي صالح – عليه السلام –: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[4].

أما عن المشركين في مكة فقد تآمروا في دار الندوة ولكن الله – عز وجل – أحاط بمكرهم وأذن للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بالهجرة إلى المدينة المنورة ولم

---

(١) سورة فاطر: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٣) سورة النمل: ٧٠.

(٤) سورة النمل: ٥١.

يستأصلهم لوجوده بين ظهرانيهم . قال – سبحانه –: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ﴾(١).

ونذكر نماذج من المكر بالمسلمين للنيل من عقيدتهم وتشريعاتهم والحروب الباطلة التي تشن ضدهم: ونضرب مثلاً من الاتحاد السوفيتي السابق الذي مكر بالقرآن الكريم أكثر من سبعين سنة ، حيث منع حيازته ونهى عن قراءته مما حدا بالمسلمين في هذه الدول اتباع السرية والكتمان في نهج تعلمه . أما نتيجة هذا الكيد فهو انهيار هذا الاتحاد بقدرة الله – عز وجل – وإحاطته بمكرهم وعادت قراءة القرآن الكريم ودراسة علومه في المساجد والمدارس والبيوت . قال – تعالى – عن الكفار الذين بلغهم القرآن الكريم وإلى يوم القيامة: ﴿ **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾(٢).

أما في مجال الكيد بالتشريعات الإسلامية فقد مكر كثير من أعداء الإسلام بها ونذكر نموذجاً منها يخص المرأة ، إذ قالوا: إن هذه التشريعات هي أساس تخلفها وتقف في طريق

---

(١) سورة الأنفال: ٣٠.

(٢) الأنعام: ٢٦.

الحصول على حقوقها وتمنعها عن العمل وتحصرها في البيت ، وقد تناسى هؤلاء الماكرون دور المرأة المسلمة في الحروب وفي سقاية المجاهدين ومداواة المرضى والذهاب للمساجد على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

قال – تعالى –: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾[1]. ولا يوجد في القرآن الكريم والسنة النبوية أي نص يقطع بحرمة عمل المرأة إذا تم بموجب النظام الاجتماعي في الإسلام ، ونسترشد أيضاً بالخطاب القرآني في مجال عمل المرأة وذلك بقوله – سبحانه –: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ* فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَتْ**

---

(١) سورة النساء: ١٢٤.

إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[1]. وهذه قصة معبرة حصلت مع النبي موسى – عليه السلام – عندما تكلم مع ابنتي النبي شعيب – عليه السلام – حين وجدهما تعملان في سقاية الغنم من أحد الآبار، لأن أباهما شيخ كبير وضعيف ولوجود جمع من الرعاة يسقون مواشيهم ، لذلك ساعدهما وسقى لهما غنمهما إضافة لذلك فإنه من خلال هذا العمل الصالح من قبل النبي موسى – عليه السلام – فإن أباهما عرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه . وهذه سنة قائمة تؤكد الروعة والتقدم وذلك بعرض المسلم وليته على الرجل القوي والأمين اقتداءً بالسلف الصالح .

وقد تمخض عن كيد الماكرين بالمرأة المسلمة ابتعاد قسم من النساء عن تعاليم الإسلام لفترة معروفة ، وعندما

---

(١) سورة القصص: ٢٣-٢٨.

حصلت الصحوة الإسلامية وعلمن الحقيقة اقتنعن بها ورجع أكثرهن إلى الحجاب لأن الله – تعالى – خالقهن وهو أعلم بمصلحتهن ومصلحة المجتمع . أما نتيجة مكرهم فإن نظام الزواج قد تصدع عندهم وأدى إلى تفكك نظام العائلة .

أما في مجال المكر السيئ وهذه الحروب الباطلة التي تشن ضد المسلمين واحتلال أراضيهم ، فنأخذ نموذجاً من الاعتداء الصهيوني واحتلال فلسطين ، والذي حصل نتيجة ابتعاد المسلمين عن منهج الله – عز وجل – خصوصاً في زمن الاستعمار السابق ، ولكن علام الغيوب أنبئنا في كتابه الحكيم بأن هذا الأمر سيحصل وهو معلوم عند الله – سبحانه – وذلك بقوله: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً* فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً* إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً* عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ**

عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾[1]. يقول الشيخ الشعراوي (﴿ قَضَيْنَا ﴾ أي حكمنا حكماً مؤكداً لا مفك منه على بني إسرائيل وأعلمناهم في التوراة أنهم سيفسدون في الأرض مرتين بعد الإسلام ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أي الفساد الأول ﴿ فَإِذَا جَاء ﴾ أي أن الأمر لحد الآن لم يجئ ﴿ وَعْدُ ﴾ والوعد لا يكون لشئ مضى وإنما يكون لشئ سيأتي في المستقبل وعندما نقضوا العهود في المدينة المنورة ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ﴾[2] أي خيبر المحصنة ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا ﴾ أي هم المؤمنون الذين نفذوا مراد الله – تعالى – واختياره وهذا حدث على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عندما أجلى اليهود عن خيبر وانتهى أمرهم في المدينة . ثم جاءت المساعدات الكثيرة لليهود والنفير الكبير معهم من قبل بعض الدول الباغية القوية ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ . ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي الفساد الثاني الذي لم يجئ بعد وأن هذا الوعد سيحصل وستتم مذلة اليهود على

---

(١) سورة الإسراء: ٤-٨.

(٢) سورة الحشر: ٢.

أيدي المسلمين) . ويدل على ذلك إجماع أهل اللغة أن الضمير وهو واو الجماعة في فعل يسوؤا جاء ليدل على جماعة ذكرت قبله وهم ﴿ **عِبَاداً لَّنَا** ﴾ أي أنهم أيضاً مؤمنون يتبعون النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ﴿ **وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ** ﴾ والمسجد في العموم هو مصطلح إسلامي . ﴿ **كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ يقول الشيخ الشعراوي: (أي دخول المسجد الأقصى في عهد الخليفة عمر – رضي الله عنه –) . ﴿ **وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً** ﴾ أي ويدمر المسلمون كل ما علوه وبنوه . ﴿ **وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا** ﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى العقوبة .

وتأكد ذلك في إخبار القرآن الكريم عن مكر اليهود وإفسادهم الثاني وإحاطة الله – تعالى – بمكرهم ، حيث أن اليهود يعيشون عيشة انعزالية ولا يذوبون في المجتمعات التي يتواجدون فيها ، وفي العموم يوجد حي خاص لليهود في كل بلد يسكنون فيه . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً** ﴾[1]. وفي هذه الحالة يكون رد عدوانهم صعب وهم متفرقون في البلدان ، لذلك مكر الصهاينة

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٨.

وعملوا وعد بلفور ليحتلوا فلسطين ، ويجعلوا منها وطناً قومياً لليهود وما يشعرون أن تجمعهم هذا يخدم قضية الإسلام ، حيث يسهل انقضاض المسلمين عليهم لرد عدوانهم. وإعجاز القرآن الكريم يتجلى واضحاً بقوله – سبحانه –: ﴿ **وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً** ﴾[1].

وهذا تأكيد مرة ثانية عن الفساد الثاني والله أعلم حيث جاؤوا بالملايين ليتجمعوا مختلطين على شكل لفيف مفسد من عدة جنسيات ليحتلوا فلسطين وينقضوا المعاهدات . قال – تعالى –: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ** ﴾[2].

وإن هؤلاء اليهود الصهاينة لا يقاتلون المسلمين إلا إذا كانوا في قرى محصنة أو من وراء الجدران ليتستروا بها لفرط جبنهم . قال – عز وجل –: ﴿ **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ** ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء: ١٠٤.

(٢) سورة المائدة: ١٣.

(٣) سورة الحشر: ١٤.

وهذا أيضاً من إعجاز القرآن الكريم فالذي يذهب للضفة الغربية المحتلة من فلسطين ، ويشاهد التخطيط الحضري لاختيار المستوطنات المغتصبة ، يرى أنها تتم بالتركيز على أعالي التلال وتشرف على مناظر جميلة وإستراتيجية وأن الذي يسكن في هذه الأبراج العالية يراقب الوضع في الليل والنهار ، وتتميز بوجود الطرق الالتفافية ومختلف الجدران الأمنية والأسيجة الفاصلة ، والتخطيط بعزل المناطق الفلسطينية في الأسفل ، ويركز على توزيع أمني للبناء يعطي شعوراً بالهيمنة والاستكبار ، ويقوم المهندس المعماري الإسرائيلي في الغالب بوضع غرف المعيشة باتجاه الخارج للنظر وغرف النوم باتجاه الداخل ، والعمارة الإسرائيلية في المغتصبات هي سياسية بالدرجة الأولى ، وهذا هو مفهوم القرى المحصنة ، وكذلك فإنهم يشيدون الجدران العازلة وهذا هو مفهوم جدر وهو جمع جدار في الآية المذكورة . ولكن الله – عز وجل – خادعهم من حيث لا يشعرون فقد جاؤوا إلى منطقة فيها قوم أجدادهم جبارون وهم الفلسطينيون المسلمون . والدليل على ذلك قوله – سبحانه – على لسان النبي موسى – عليه السلام – وأمره

لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وهي بيت المقدس فكان ردهم إن فيها قوما جبارين: ﴿ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ** ﴾[1].

وبتعاون المسلمين مع بعضهم سيذلون وجوه اليهود الصهاينة ويهينوهم ويدمروا بناءهم العالي بسبب ظلمهم وعدوانهم وأن العذاب ماض فيهم إلى يوم القيامة بسبب زيغان قلوبهم . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ٢١-٢٢.

(٢) سورة الأعراف: ١٦٧.

الحقيقة السادسة: منافع الأقليات الإسلامية

لقد جاءت الحضارة الإسلامية وفيها سعادة ورحمة للبشرية كلها من المسلمين وغير المسلمين . قال – تعالى –: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[1].

ويتجلى ذلك واضحاً في الخطاب القرآني الموجه لجميع البشر بضرورة التعارف والتآلف فيما بين الجنسيات المختلفة وبدون تمييز عنصري وضمان حقوق المواطنة للجميع . قال – سبحانه –: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾[2].

وكذلك جعل الله – تعالى – الناس في اختيارهم العقيدة أحراراً وهذا هو أول حق من حقوق البشر وذلك لقوله – جل وعلا –: ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾[3]. وقوله: ﴿ **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ**

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) سورة البقرة: ٢٥٦.

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1]. أي لو أراد الله – تعالى – لخلق الجنس البشري على طريق واحد وهو إيمان الناس جميعاً ، ولكنه – عز وجل – لم يشأ ذلك ، وإنما يريد من عباده إيمان الاختيار وليس الإجبار . وهذه هي حكمة الخالق – جل جلاله – في جعل التعددية الثقافية بكل أطيافها قابلة للتعايش مع الإسلام . ثم أعطى الله – تعالى – للمسلمين توجيهات مهمة بضرورة التعايش السلمي وعدم الرغبة في الخصومة مع الشعوب غير المسلمة والإحسان إليهم والبر بهم والعدل معهم والعمل في مجالات الخير لمصلحتهم ، في حالة عدم محاربتهم للمسلمين وإخراجهم من أوطانهم بالظلم والعدوان . قال – سبحانه –: **﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾**[2].

وبسبب تأييد الله – عز وجل – ونصره للإسلام ظهرت أدلة على أحقيته ، حيث حفظ الله – تعالى – القرآن الكريم وجعله أكثر كتاب يقرأ في العالم من خلال صلوات المسلمين

---

(١) سورة هود: ١١٨-١١٩.

(٢) سورة الممتحنة: ٨.

المرتبطة بجريان الشمس بالنسبة لمواقع المدن وينتج عن هذا أيضاً أعلى ذكر متميز لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – حيث يذكره المسلمون ويشهدون له بالرسالة في صلواتهم وبمعدل ربع مليون مسلم في الدقيقة على أقل تقدير وذلك لورود اسمه في الأذان والإقامة والتشهد ، لذلك فالأحرى بجميع البشر أن ينتبهوا لهذه المعجزات الخارقة ويتدارسوا التشريعات الإسلامية التي التزمت بها أكثرية الأمة ابتغاء مرضاة الله – جل وعلا – .

وسنكتفي بذكر أربعة نماذج تخص الخمر والزنا والخمار (الحجاب) وتعدد الزوجات: ومناقشة منافع الأقليات الإسلامية جزاء التزامهم بأكثرها .

لقد حرم الله – عز وجل – شرب الخمور فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[1]. وظهر أضرار تعاطيها وأصبح حقيقة علمية ، لقد ألفت كتب كثيرة من قبل متخصصين عن مضار شرب الخمور من الناحية الصحية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية ، وثّق

---

(١) سورة المائدة: ٩٠.

قسم منها بموجب إحصائيات بعض الدول المتقدمة ، وأن التزام قسم من الأقليات الإسلامية في بلاد الغرب بعدم شربِ الخمور إضافة للبعض منهم ، يؤدي إلى تقليل الجرائم مثل السرقة والقتل والاغتصاب والشذوذ الجنسي والمقامرة وحوادث المرور وكل الرذائل . وهذا يصب في منفعة الشعوب غير الإسلامية التي يكثر فيها شرب الخمور .

أما بالنسبة للزنا قال - تعالى -: ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً** ﴾[1]. إن الأديان السماوية مجمعة على تحريمه وآخرها الإسلام الذي شدد النهي عنه والتحذير منه ، لما يؤدي إليه من اختلاط الأنساب والجناية على النسل وتدمير النظام العائلي وتناقص أعداد البشر وانتشار الأمراض الجنسية الفتاكة وانهيار الأخلاق وتزايد عدد الأطفال غير الشرعيين وما يحتاجونه من عناية ورياض للأطفال وخدمات تحتم على الدول دفع مصاريفهم وتسبب ازدياد الضريبة ، لذلك التزمت أكثرية الأقليات الإسلامية بالابتعاد عن الزنا . وهذا يصب أيضاً في منفعة الشعوب غير الإسلامية التي يكثر فيها الزنا والأمراض الجنسية .

---

(١) سورة الإسراء: ٣٢.

أما بالنسبة للخمار وهو غطاء الرأس (الحجاب) فهو واجب ديني فرضه الإسلام . قال – عز وجل –: ﴿ **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ** ﴾[1]. وجاء ملائماً مع الفطرة وطبيعة خلق المرأة يقول النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –: (رويدك بالقوارير) [صحيح البخاري] . أي رفقاً بالنساء فإن صفاء المرأة كصفاء الزجاج الثمين الذي يتأثر حتى بالغبار لشفافية وحساسية خلق المرأة ، وهو خير تمثيل لرقتها فيجب المحافظة عليها من أذى بعض الرجال السيئين ، وهي كاللؤلؤة فسبحان الذي غلفها بهذا الصدف . قال – سبحانه –: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** ﴾[2].

وتروي الدكتورة ماريون هيلارد رئيسة قسم النساء والولادة في جامعة تورنتو سابقاً عن الأنوثة وطبيعة الغدد وتخصص الأعضاء والرغبات عند المرأة لذلك فهي تحذرها من الوقوع في الخطأ قائلةً: (ولهذه الأسباب ينبغي للنساء

---

(١) سورة النور: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب: ٥٩.

أن يقين أنفسهن بالتمسك دائماً بمستوى من الأخلاق والسلوك قد يبدو نادراً غير مألوف . فإن الحرية التي تتمتع بها الفتاة العصرية ليست سوى وهم . وهي تحذر المرأة أيضاً من تلامس يدها مع الرجل أي بالمصافحة) .

ولو نظرنا إلى بيضة المرأة في قناة فالوب المحاطة والمحجبة بغلافها العجيب ، لعلمنا أنها تسمح فقط لحيمن واحد بالمرور من بين مئات الملايين التي تضمحل ثم تموت، عندها تكون بيضة مخصبة وهذه حكمة الخالق – عز وجل – في إنجاب مخلوق بشري طاهر جديد . وقد سمعت أن امرأة دنمركية تقول أنني ضد حجاب المسلمة وهو يشعرني أنها لرجل واحد فقط ، فسبحان الله لنداء الفطرة التي ضيعتها فتاة الغرب . لذلك فإن الزواج هو الحب المستقر وقد أعطاه الإسلام أهمية بالغة . قال – تعالى –: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة الروم: ٢١.

وتشير الأدلة في بلاد الغرب اعتياد الرجل على تبرج وسفور النساء وسهولة قضاء الشهوات واكتفائه بالملذات الحسية ، مما يجعله بارداً تجاه الزواج وبذلك تقل نسبته . لذلك فإن الحجاب هو خير حافظ للمرأة ويؤدي إلى العفة وزيادة نسب الزواج . وإن التزام قسم من المسلمات به في بلاد الغرب فيه منافع للشعوب غير الإسلامية التي يعم فيها تبرج النساء وأمر الله – عز وجل – المؤمنين بغض البصر عند النظر إليهن .

قال – جل وعلا –: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾[1].

ومن المعلوم أن الشركات المنتجة لملابس التبرج والزينة المبتذلة والخمور والأدوية المعالجة للأمراض الجنسية والشركات المسوقة لها وكذلك الشركات المشاركة في الإعلان الخادع والإعلام المضلل ، هي في مقدمة المحاربين للإسلام لأنه يتعارض مع مصالحها الدنيئة ولا يهمها مصالح الشعوب ومدى الأضرار التي تلحق بهم .

---

(١) سورة النور: ٣٠.

أما بالنسبة لمقاصد الإسلام من إباحة تعدد الزوجات ولحد أربع لقوله – تعالى –: ﴿ **فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً** ﴾[1]. فقد جاءت لاعتبارات وضرورات بشرية كثيرة فردية واجتماعية . ولكننا سنسلط الضوء على مشكلة اجتماعية هامة تخص كثيراً من دول العالم المتضررة بها ، وهي زيادة عدد النساء عن الرجال لعدة أسباب وخاصة في أعقاب الحروب التي تلتهم صفوة الرجال . ولتنظيم أكبر مسألتين من مسائل التمدن البشري وأعظمها خطورة والتي تعتمد على الصلة ما بين الرجل والمرأة وكيفية توطيدها في الحياة الاجتماعية ، وكذلك على العلاقة ما بين الفرد والجماعة وجعلها ترتكز على أسس سليمة ، ولو نظرنا بنظرة فاحصة لوجدنا أن هناك ثلاثة طرق فقط أمام هؤلاء الزائدات من النساء: فأما أن يقضين العمر كله في مرارة الحرمان من الحياة الزوجية ونداء الفطرة ونعمة الأمومة والاستقرار ، أو أن يرخى لهن العنان والفساد وتفكك النظام العائلي وخرابه كما يحصل في بلاد الغرب ، أو أن يباح

---

(١) سورة النساء: ٣.

لهن الزواج من رجل متزوج قادر على النفقة والعدل قدر الإمكان . ولا ريب أنه لا يوجد حل آخر مطلقاً غير تعدد الزوجات ، بالرغم مما يواجهه من صعوبات ومعارضات فردية في الغالب إلا أنه يصب في النهاية في فائدة هكذا مجتمعات منكوبة مختلة التناسب بزيادة عدد النساء عن الرجال . أما لو كانت النسبة متوازنة بين أعداد النساء والرجال المؤهلين للزواج عندها لا يجد الرجل امرأة زائدة ليتزوجها إضافة لزوجته .

لذلك فإن إباحة التشريع الإسلامي تعدد الزوجات لحد أربع ومن ضمنها الزواج بالكتابية وهو يعترف بدينها ولا يؤذيها ، جاء ليقلل مشكلة زيادة النساء وأسباب أخرى والله أعلم . وبالتالي فمن الممكن لهذه الأقليات الإسلامية أن تقدم الحلول المناسبة بعد اقتناع الشعوب الذين تتعايش معهم للخروج من هذه الأزمة . قال – سبحانه –: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ**

عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[1]. ولو ناقشنا بقية التشريعات الإسلامية لوجدناها أيضاً ذات صفات إيجابية تشع أنواراً على الآخرين من حيث لا يعلمون .

وفي الختام نسأله – تعالى – التوفيق لتوضيح منافع الأقليات الإسلامية ، بالرغم من قلة نسبتها وانتشارها في البلدان غير الإسلامية ، وما يتعرضون له من الفتن والامتحانات ، إلا أن فيها كل الخير والبركة بما صبرت في سبيل الله وفتحت أبواباً للتعايش السلمي والموعظة الحسنة والجهاد العلمي عن طريق الإعلام والانترنيت والحوار الهادئ مع الشعوب غير الإسلامية . ومن ينظر بنظرة محايدة ويضع مقاييس تستشعر منافع التشريعات الإسلامية ، لوجدها تصب في مصلحتهم وهي صالحة لكل زمان ومكان، ولو علموا نتائج تطبيقها لوضعوا الأقليات الإسلامية في عيونهم ولحافظوا عليها أشد المحافظة .

---

(١) سورة المائدة: ٥.

الحقيقة السابعة: الميزات الجلية لعيدي المسلمين

سمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد ، وقيل اشتقاقه من العادة لأن الناس اعتادوه ، وقيل ليوم الفطر والأضحى عند المسلمين عيدا لأنهما يعودان كل سنة ، والأعياد ظاهرة اجتماعية عند الشعوب قسم منها له علاقة بالدين أو ترتبط بظواهر كونية وأخرى وطنية أو تقاليد متوارثة ، ومن مظاهرها الأكل والشرب والزينة وهي رغبات فطرية تدخل السرور في قلوب الناس .

وسنسلط الضوء على أربعة مواضيع:

أولها: الأعياد عبر التاريخ

بين القرآن الكريم بعض القصص للعبرة حدثت قبل الإسلام ، نذكر منها ما حصل مع قوم النبي إبراهيم – عليه السلام – إذ كانوا يعدون لعيد يقضون أيامه خارج المدينة ويحدث في كل عام بعد أن يضعوا طعاماً كثيراً قرب أصنامهم في بيت العبادة ، حتى إذا ما رجعوا من عيدهم يأكلونه فرحين مغتبطين فقد باركته الآلهة ، وكان الكهنة يشجعون الناس على ذلك ويتسلمون منهم الهدايا والنذور التي كان الناس يقدمونها إلى تلك الأصنام ، ولما هموا

بالذهاب إلى عيدهم طلبوا من النبي إبراهيم- عليه السلام - أن يرافقهم ولكنه تظاهر بالمرض ﴿ **فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ** ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (أي فتركوه إعراضاً عنه وخرجوا إلى عيدهم) . فلما ذهبوا توجه إلى هذه التماثيل وتناول فأساً ثم قام بتكسيرها إلا كبيرهم . ولما رجع قومه من عيدهم بزينتهم المعهودة وفي غمرة الاحتفال وبهجته واختلاط الأصوات نظروا إلى آلهتهم فرأوها محطمة ، فتقاطرت الوفود وتكاثرت الجموع كل يرغب في القصاص من النبي إبراهيم - عليه السلام - وفجأة ارتفع صوت قوي مدوي أسكت أصواتهم كلها مرة واحدة ﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ** ﴾[2]. فهموا أن يحرقوه ولكنهم عجزوا عن ذلك وفشل الاحتفال وانقلب العيد إلى خسران . قال - تعالى -: ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ** ﴾[3].

---

(١) سورة الصافات: ٩٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٦٩-٧٠.

ونذكر طلب النبي موسى – عليه السلام – أن تكون المناظرة بينه وبين سحرة فرعون في احتفال كبير: ﴿ **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (أي قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد) . إن يوم الزينة هو من أعظم الأعياد عند قوم فرعون وهو عيد وفاء النيل ، حيث أقبلوا بأحلى زينتهم وأجملها وكانوا يتوقعون انتصاراً في ذلك اليوم يزيد عيدهم بهجة وسروراً وهو انتصار سحرة فرعون على موسى وهارون– عليهما السلام – وكانت النتيجة أن السحرة خروا سجداً لرب العالمين . قال – سبحانه –: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾[2]. وفشل الاحتفال وتحول العيد إلى خذلان لفرعون وقومه .

ونذكر يوم عيد آخر مرتبط بالمائدة وما فيها من طعام قال – جل وعلا –: ﴿ **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً**

---

(١) سورة طه: ٥٩.

(٢) سورة طه: ٧٠.

مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1]. يقول صاحب تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ، وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستفاد من شرفها ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا) . فاستجاب الله – عز وجل – لطلبه: ﴿ قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾[2]. يقول القرطبي في تفسيره: (هذا وعد من الله – تعالى – أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق ، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير) . وفشل العيد بخيانة بني إسرائيل وانقلب إلى عقوبة لهم .

أما في الآونة الأخيرة فإن غالبية الأمم غير المسلمة اتخذوا أعيادهم لعباً ولهواً غير مباحين يصاحبهما في العادة شرب الخمور واحتفالاتهم المختلطة التي تخفي وراءها كثيراً من الانحرافات وما يصاحبها من فشل اجتماعي . وقد دلت

---

(١) سورة المائدة: ١١٤.

(٢) سورة المائدة: ١١٥.

الإحصائيات على تزايد نسبة الكوارث في هذه الأعياد مثل زيادة حوادث اصطدام السيارات وأعمال العنف والتخريب والشغب . أي أنهم يحتفلون ويشهدون أعيادهم بمعصية الله – تعالى – وخطيئاتهم الجسيمة والمصيبة أنهم في الغالب لا يبذلون جهوداً لكي يصلوا إلى أفراح وبهجة العيد وإذا بذلوا جهداً فإنه لغير الله – جل جلاله – .

ثانيها – العيدين وأفراحهما في الإسلام هدف ونتيجة لجهود قيمة

ونضرب مثلاً على الإنسان عندما يحرث التربة ويبذر البذور ويسقي الأرض ويبذل جهوداً مضنية ، فإن هدفه هو جني الثمار وإن نتيجة عمله هو هذا الحاصل الذي يسر أهله، ولو اطلع الناس على حقيقة الجهود الفردية والجماعية التي تسبق عيد الفطر عند المسلمين ، المتمثلة أولاً برؤية الهلال وسماع أخبار أول يوم من شهر رمضان المبارك ليتسنى للأمة الاستعداد وبذل الجهود لصيام الشهر ، وتتابع الأمة بشغف وجهد للتحري عن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر إذ تزداد العبادة فيها ويكثر الدعاء ، وبعدها رؤية الهلال وسماع أخبار آخر أيام شهر رمضان . وأوجب الله –

تعالى – على كل فرد من المسلمين دفع صدقة الفطر في رمضان وفيها خير عون للفقراء والمعوزين وإسعادهم في العيد ، ثم التكبير من وقت الخروج إلى صلاة العيد ولحين ابتداء الخطبة . قال – سبحانه –: ﴿ **وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1]. وقد تبين بواسطة الأجهزة التي تقيس الذبذبات الصوتية أنها عالية في تكبيرات المسلمين وبالتالي فإنها تؤدي إلى راحة النفس البشرية ، وبعد ذلك يتوجه المسلمون لأداء صلاة العيد وسماع خطبته . وبعد كل هذه الجهود يفرح المسلمون ويحتفلون بالعيد ويدللون على نجاحهم في تبليغ الناس . أما بالنسبة للجهود المبذولة لكي تستعد الأمة لعيد الأضحى فتبتدئ بعدة ملايين تمثل غالبية بقاع الأرض تحزم حقائب السفر إلى مكة المكرمة جامعة معها كل لغات العالم وأجناسه وألوانه وأعرافه المشروعة ونماذج من طعام وملابس أهل الأرض إضافة للإحرام ، وهذه الطاقة في حركة المسلمين شاهدة للعيان ، ثم تتابع الأمة بشغف أخبار أول يوم من شهر ذي الحجة في مكة المكرمة لكي ترتب استقبال العيد

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

ومعرفة الأيام التي تقيم فيها شعائر الحج وخاصة يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجة وما قبله وبعده من طواف وسعي ، وبعد كل هذه الجهود يتوجه الحجاج في اليوم العاشر من ذي الحجة مع بقية المسلمين في شتى بقاع الأرض بالتكبير وأداء صلاة العيد وسماع خطبته عندها يفرح الحجاج بالعيد ويذبحون ملايين الأضاحي . قال - تعالى -: ﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** ﴾[1]. وكذلك يذبح المسلمون في كل قطر ملايين الأضاحي لكي يكون الطعام ميسراً وفيه خير عون للفقراء ، ولو قيست هذه الجهود لتبين مدى نجاح الدعوة الإسلامية في تبليغ الناس . ويتضح أن النعيم لا يدرك بالنعيم وإنما بالتعب والجهد وإن الجنة لا تدرك إلا بالأعمال الصالحة والصبر على المشقة .

ثالثها: الآداب في العيدين

أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحث كل مسلم على حضور العيد والتعاون على البر والتقوى وفيه استحباب حضور مجامع الخير ودعاء المسلمين ، أي

---

(١) سورة الحج: ٢٨.

المشاركة الإيجابية في العيد وما فيها من منـــافع عظيمـــة ، مثل الدعوة السلمية الحسنة والتعارف والمساهمة في تزويج النساء العواتق المستحقات للزواج وغيرهن من المحتجبـــات في هذا اليوم السعيد . عن أم عطية قالت: (أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نخرج الحيّض يـــوم العيـــدين وذوات الخدور فيشهدنّ جماعة المسلمين ودعوتهم ويعتـــزل الحيّض عن مصلاهن قالت امرأة يا رسول الله أحدانا لـــيس لها جلباب قال لتلبسها صاحبتها مـــن جلبابهـــا) [صـــحيح البخاري] . وجاء في صحيح مسلم: (أن نخـــرجهن فـــي الفطر والأضحى العواتق والحيّض وذوات الخـــدور فأمـــا الحيّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين... الحديث) . ونقتطف مما يقوله ابن حجر في فتـــح الباري: (العواتق: جمع عاتق وهي من بلغت الحلـــم أو قاربـــت أو استحقت التزويج . وأن الحـــائض لا تهجـــر ذكـــر الله ولا مواطن الخير لمجالس العلم والذكر سوى المساجد . أو ليس تشهد عرفة وتشهد كذا وتشهد كذا فهو المطابق لقول جـــابر فنسكت المناسك كلها إلا الطواف بالبيـــت . وفيـــه امتنـــاع خروج المرأة بغير جلباب . وقوله من جلبابها: أي تعيرهـــا

من ثيابها مالا تحتاج إليه) .

ويستحب التهنئة بالعيد حيث كان الصحابة – رضي الله عنهم – إذا التقوا يقول بعضهم لبعض (تقبل منا ومنك) وكذلك الزينة وصلة الأرحام وزيارتهم ، وقد أباح الإسلام الغناء الديني واللهو البرئ والغناء الحسن في يوم العيد رياضة للبدن وترويحاً عن النفس .

عن عائشة – رضي الله عنها –: أن أبا بكر – رضي الله عنه – دخل عليها والنبي – صلى الله عليه وسلم – عندها يوم فطر أو أضحى وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعاث فقال أبو بكر: مزمار الشيطان مرتين فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: (دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وإن عيدنا هذا اليوم) [صحيح البخاري] . ويضيف مسلم في صحيحه: (وفيه جاريتان تلعبان بدف) . وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) [صحيح مسلم] . يقول ابن حجر في فتح الباري عن هذه الأيام: (سميت بذلك لأن صلاة العيد أنما تصلى بعد أن تشرق الشمس وعن ابن الغلام قال: سميت بذلك لأن الهدايا والضحايا لا تنحر حتى تشرق

الشمس) .

رابعها: حفظ الله – عز وجل – للعيدين في الإسلام

إن أداء صلاة العيدين يدلل على رعاية الله – تعالى – لأمتنا ، وذلك لقيام كوكبة من المسلمين بالصلاة والشكر لرب العالمين بعد شروق الشمس مبتدئين من مكة المكرمة ، ثم تنتقل بعد لحظات إلى مدن أخرى وهكذا تتوزع على الأرض في يومي العيدين .

ووضع الله – جل جلاله – أسساً ثابتة ورصينة بغية الوصول لمرحلة العيدين ، ففي عيد الفطر صيام شهر رمضان وهو الركن الرابع في الإسلام ، وبالنسبة للأضحى حج البيت من استطاع إليه سبيلا وهو الركن الخامس . وسيبقى العيدان عند المسلمين محفوظين بقوة الله – عز وجل – إلى يوم القيامة ما دام صوم رمضان وشعائر الحج باقيين إلى يوم الدين .

وفي الختام ينتابني شعور بالمسرة والعيد وأنا أتصور الحديث الشريف الذي يخص دموع النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – الغالية التي ذرفها رأفة بأمته ، وما بذله من جهود مباركة لكي يحصل على رضا الله – جل وعلا – وقد

جاءه جواب الحق – تعالى – المتفرد بأمته في كلمات معبرة فيها سرور وعيد لهم . روى الإمام مسلم في صحيحه: (أن النبي – صلى الله عليه وسلم – تلا قول الله – عز وجل – في إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1]. وقال عيسى – عليه السلام –: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[2]. فرفع يديه وقال أللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله – عز وجل –: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك فاتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما قال وهو أعلم فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك) . عندها انقلبت دموعه – صلى الله عليه وسلم – إلى دموع فرح وسرور وهو يتلقى هذا الخبر العظيم ، وفيه بشرى للأمة ومن فيها من مظلومين وصابرين على الفتن والمصائب ، ألا ترضون أن تكون لنا الآخرة وعيدها الدائم

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٦.

(٢) سورة المائدة: ١١٨.

ونعيمها الباقي وهذا هو النجاح الحقيقي ، وللبقية الدنيا الفانية وأعيادها الزائلة ونعيمها البالي .

الحقيقة الثامنة: مفهوم السكن في القرآن والسنة

ورد مفهوم السكن كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية وللسكن معان كثيرة: أهمها سكون الشئ إذا طال زمانه واستقرت حركته ، وكل ما هدأ فقد سكن كالريح والحر والبرد ونحو ذلك ، والسكينة الطمأنينة .

والسكن في العموم ثلاثة أنواع:

أولها: السكن المادي ويقسم إلى خمس نقاط:

١- سكن الأرض

مثل قوله – جل وعلا –: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُواْ** ﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس) .

ثم ذكر القرآن الكريم آيات عديدة عن قرى سكنت الأرض عبر التاريخ وفيها قصص وعبر تلفت الأنظار ولكننا سنركز على موضوعين:

---

(١) سورة البقرة: ٣٦.

أحدهما يخص سكن أرض مكة المكرمة ، حيث قال – تعالى – على لسان النبي إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾[1]. وهذا هو أمر الله – جل جلاله – وتكليفه لسيدنا إبراهيم بإسكان ابنه إسماعيل وأم إسماعيل بوادي مكة وهي أرض صخرية ليس فيها زرع . أي خصصها بمكان معين وبصفة محددة . ومكة المكرمة هي مركز اليابسة على الأرض بتقدير الله – عز وجل – والحرم الآمن الذي يشع منه نور التوحيد لأهل الأرض . قال – سبحانه –: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾[2]. لذلك فقد أقسم الله – عز وجل – بها فقال: ﴿ **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾[3] لحرمتها منذ خلق السماوات والأرض . ثم قال: ﴿ **وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾[4] أي وأنت يا محمد ساكن فيها . وهذا تنبيه للبشرية بضرورة التفكر بما في مكة المكرمة من آيات بينات وسكون إلى يوم القيامة . ولو نظر الناس إلى ما

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.

(٢) سورة الشورى: ٧.

(٣) سورة البلد: ١.

(٤) سورة البلد: ٢.

يجري حولها في الأرض من حروب مدمرة وزلازل وأعاصير ، لعلموا أن هذه هي مشيئة الله – جل وعلا – وأن هذا الجو المناسب فيها للإحرام بهذه الملابس البيضاء في كل وقت هي إرادته . قال – تعالى –: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ﴾[1].

أما الموضوع الآخر فهو يخص بني إسرائيل ، ورفضهم دخول أرض بيت المقدس فعاقبهم الله – عز وجل – في التيه في الأرض أربعين سنة . قال – سبحانه –: ﴿ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ* قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً**

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٧.

يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[1]. ثم توالت أوامر الله – جل جلاله – إليهم مثالاً لقوله: ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾[2]. أي أن الله – عز وجل – يأمر بني إسرائيل بالسكن في الأرض حيث لم يخصص المكان ولم يصفه بل قال بحقهم: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً ﴾[3]. لذلك فإنهم يتجمعون في سكن خاص بهم في كل بلد يعيشون فيه ، وقد جاء لفيف منهم ليحتلوا أرض فلسطين ولكن الله – تعالى – لهم بالمرصاد: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[4].

٢ – سكن البيوت والخيام والجبال ونحوها

وهو سكن لراحة الإنسان . قال – سبحانه –: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

---

(١) سورة المائدة: ٢١-٢٦.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٦٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٦٧.

وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾[1]. ويتجلى ذلك واضحاً بتعداد الله – تعالى – لنعمه على العباد وهذا العقل المبدع الذي مكنهم من تطوير السكن عبر التاريخ بمواد إنشائية مختلفة وتصاميم معمارية تأخذ بنظر الاعتبار حماية الأبنية بسبب ظروف المناخ وتحقيق الأمان ، وتصاميم داخلية مثل ترتيب الأثاث والديكور ، وخارجية لكل ما يحيط بهذا السكن مثل الحدائق . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾**[2]. وكذلك عمل بيوت مغايرة للبيوت المعهودة تجدونها خفيفة يسهل حملها وتركيبها في السفر والإقامة وهي الخيام ونحوها . وكذلك سكن الكهوف في الجبال عند الضرورة . مثالاً لقوله – تعالى –: ﴿ **فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ﴾**[3].

ولأهمية السكن ينبغي للمسلمين وضع خطط مدروسة لتيسيره وبدون مغالاة . قال الرسول – صلى الله عليه

---

(١) سورة النحل: ٨٠.

(٢) سورة النمل: ٦٠.

(٣) سورة الكهف: ١٦.

وسلم -: (أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا مـــالا ، إلا مالا) يعنى مالا بد منه [سنن أبي داود] . أي سكن يلبـــي الحاجات الأساسية وبأقل التكاليف لما فيه من نفع كثير وأجر كبير خصوصاً في مجال إسكان المتزوجين الجدد .

وتوجد آداب عظيمة في الإسلام في كيفية دخـــول هـــذه البيوت ، مثل الاستئذان وتحية السلام على ساكنيها والأكـــل فيها والدخول من أبوابها . وفي هذا المقام لابد أن نذكر تميز بيوت نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – بما نزل فيها من آيات قرآنية ، وما تلي من سنة نبوية . قال – سبحـــانه -: **﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَـــةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾**[1].

٣ – سكن الحيوان

مثل مساكن النمل العجيبة وتخاطبهم المدهش للتفاهم فيما بينهم وما كشفه العلم عن وجود فصائل متعددة مـــن النمـــل تبني بمواصفات خاصة لكل نوع منهـــا كغـــرف اليرقـــات ومخازن الغذاء . لذلك لا يجوز أن يقال مسكن النمـــل لأن معناها يوحي أن لكل فصائل النمل مسكناً بمواصفات واحدة،

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٤.

وهذا خلاف الحقيقة وطبيعة البناء عندهم . قال – تعالى –: ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾(١).

وكذلك مساكن النحل وما فيها من اجهادات وكل نوع منها يتصف ببناء غرف سداسية بحجوم مناسبة للنوع نفسه وكذلك سمك الجدران وغيرها . لذلك لا يجوز أن يقال بيت النحل لأن معناها يوحي أن لكل أنواع النحل بيتاً بشكل واحد، وهذا خلاف شكل البناء عندهم . قال – سبحانه –: ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴾(٢).

وكذلك بيت العنكبوت الذي تنسجه الأنثى بشكل يعتمد على نوع العائلة التي تنتمي إليها بتصاميم معمارية عجيبة وعمليات إنشائية خارقة ، مثل الدائري والمتعدد الأضلاع وغيرها . لذلك لا يجوز أن يقال بيت العناكب لأن معناها يوحي أن لكل عوائل العناكب بيتاً بشكل واحد ، وهذا خلاف الحقيقة وطبيعة النسيج عندهم . وبينت الحقائق العلمية أنه

---

(١) سورة النمل: ١٨.

(٢) سورة النحل: ٦٨.

يتسم بالوهن الاجتماعي ، مثل القتل بين أفراده وكونه فخاً للحشرات . قال – تعالى –: ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[1].

٤ – سكن القبور فترة ما بعد الموت وإلى يوم القيامة

إن جثة البشر وما يصاحبها من تغييرات تحتاج إلى دفنها في الأرض . قال – عز وجل –: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴾[2]. يقول الشيخ الشعراوي: (إن الأرض هي الأم الحقيقية للبشر) . وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج إلى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون) .

أما روح المؤمن فتنعم بسكونها في عالم البرزخ وعرضها على الجنة حيث يرى مقعده فيها . قال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة

---

(١) سورة العنكبوت: ٤١.

(٢) سورة طه: ٥٥.

وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) [صحيح مسلم] .

٥ - سكن الجنة

وهو خير المساكن لتميزه بالبقاء والنعيم الدائم مثالاً لقوله - تعالى -: ﴿ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾[١]. وقال - سبحانه - عن بيت في الجنة على لسان امرأة فرعون: ﴿ **إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٢]. وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (ما من عبد مسلم يصلى لله كل يوم ثنتى عشرة ركعة تطوعا غير فريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة) [صحيح مسلم] . وقال: (من بنى مسجداً لله - تعالى - قال بكير حسبت أنه قال يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة) [صحيح مسلم] .

---

(١) سورة التوبة: ٧٢.

(٢) سورة التحريم: ١١.

ثانيها: السكن الكوني

ونورد نماذج من آيات الله – تعالى – مثل قوله: ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[1]. أي كل متحرك في هذا الكون من الخلائق يؤول إلى ساكن وملكيته لله – سبحانه – وحده ، وهو محيط بكل شئ في هذه الخلائق في أي زمان وأي مكان سكنت .

وقوله: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ﴾[2]. من عجائب الكون أن كمية معينة من الماء النازل من السماء بتقدير الله – عز وجل – يسكن تحت سطح الأرض ، وهو أحد المصادر الأساسية للمياه الجوفية وتوجد عدة طرق للبحث عنها والاستفادة منها .

وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً** ﴾[3]. إن حركة الظل

---

(١) سورة الأنعام: ١٣.

(٢) سورة المؤمنون: ١٨.

(٣) سورة الفرقان: ٤٥.

اللطيفة لها فوائد عديدة ، وهي من المشاهد الكونية الرائعة ولو جعل الله – تعالى – الظل ساكناً لذهبت هذه الفوائد .

وقوله: ﴿ **مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾[1]. الليل ظاهرة كونية ومن رحمة الله بعباده أن جعل فيه سكناً وراحة من الحركة والتعب وهموم الحياة وأكدارها في النهار ، وهو وحده القادر على أن يأتيكم بهذا الليل للسكون والنوم .

وقوله: ﴿ **إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾[2]. الريح تتحرك بتقدير الله – عز وجل – وهي من آياته الكونية ، وجاءت في هذه الآية بمعنى الرياح المفيدة في البحر ، مثلاً لإرساء وإقلاع السفن والبواخر من الرصيف وكذلك إذا كانت مع اتجاه السفينة أو الباخرة حيث تؤدي إلى زيادة السرعة ، وأن سكونها يؤدي إلى زوال هذه الفوائد . ثم قال – تعالى –: ﴿ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ** ﴾[3]

---

(١) سورة القصص: ٧٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٣.

(٣) سورة الشورى: ٣٤.

أي لو شاء لأرسل الريح الضارة العاتية المغرقة للسفن والبواخر .

ثالثها: السكن المعنوي

وهو الطمأنينة مثل السكينة العامة لكل البشرية ، ويتمثل ذلك في الزواج وإعجازه في تكوين الإنسان وهذا السكن البديع والمحبة والفطرة التي فطرنا عليها شدد عليها الإسلام لتكون صادقة ، وهي الأساس في بناء العائلة ولتعطي المرأة منزلة عظيمة قبل أكثر من أربعة عشر قرناً يوم كانت غالبية البشرية تعتبر المرأة أصل البلاء الإنساني وأدنى مرتبة من الرجل . لذلك ينبغي للمسلمين تيسير متطلبات الزواج لما فيه من خير كثير وأجر عظيم . قال – سبحانه –: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾[1].

وسكينة مباركة في المساجد قال عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٩.

وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده) [صحيح مسلم] .

وسكينة خاصة بالصحابة – رضي الله عنهم – الذين بايعوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالحديبية لقوله – تعالى–: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1].

وسكينة خاصة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة – رضي الله عنهم – الذين شهدوا صلح الحديبية. قال – سبحانه –: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾[2]. ويوم معركة حنين لقوله – تعالى –: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[3]. وسكينة حدثت في هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومعه أبو بكر – رضي الله عنه – في غار جبل ثور قال – عز وجل –: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** ﴾[4].

---

(١) سورة الفتح: ٤.

(٢) سورة الفتح: ٢٦.

(٣) سورة التوبة: ٢٦.

(٤) سورة التوبة: ٤٠.

وسكينة مباركة لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو في قبره الشريف وبجواره الخليفتان أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – وهما يتلقيان سلام ملايين المسلمين من شتى بقاع الأرض عندما يأتون لزيارة قبر النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في الحج والعمرة وغيرها .

وسكينة نزلت على المؤمنين الذين بايعوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – تحت الشجرة في بيعة الرضوان ، حيث ذهب عثمان – رضي الله عنه – للمفاوضات وجاء خبر إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن عثمان – رضي الله عنه – قد قتل ، فضرب بيده اليمنى على الأخرى وقال هذه لعثمان . قال – جل جلاله –: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾[1].

وسكينة وطمأنينة نزلت من الله – جل وعلا – على ابن عم النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – والد سيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين – رضي الله عنهما – علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – وهو نائم في فراش النبي –

---

(١) سورة الفتح: ١٨.

صلى الله عليه وسلم – حين هجرته ، وهو موقف قمة في الفداء ضد الكفار الذين مكروا لقتل النبي – صلى الله عليه وسلم – .

وفي الختام نبين أن القلق والاضطراب بشكل عام هو حالة نفسية تحدث عند الذين يبتعدون عن ذكر الله –تعالى – فيكون السبب في استشعار الإنسان بضعفه أمام أحداث الحياة، وأن التمادي فيه يؤدي إلى ضعف الجسم وإصابته بشتى الأمراض ومعيشة ضنكى . ولا سكون لهذه البشرية إلا مع الإسلام الذي يلقي الطمأنينة في النفس وتتضاءل أمامه هموم الحياة . قال – تعالى –: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾(١).

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

الحقيقة التاسعة: الميزات الجلية في المساجد الإسلامية

وردت كلمة المسجد والمساجد عشرات المرات في القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومعنى كلمة المسجد لغةً جاءت من (سجد - يسجد - سجوداً) . يقول صاحب مختار الصحاح عن كلمة سجد: (خضع ومنه سجود الصلاة وهو وضع الجبهة على الأرض) ، واصطلاحاً هو المكان الذي يصلي فيه المسلمون لله - تعالى - وسنسلط الضوء على ستة مواضيع:

أولها: معنى السجود

قال - جل وعلا -: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴾[1]. أي أن كل ذرة في عالم المادة وكل خلية في عالم الإنسان والحيوان والنبات وكل شئ يخضع لإرادة رب العالمين ، ولا تستطيع أي ذرة أو خلية أن تسير بعكس المواصفات التي خلقها الله - عز وجل - بموجبه ، وأن الدماغ البشري الذي لا يسجد اختياراً فإن كل خلية فيه ساجدة لرب العالمين

---

(١) سورة الرعد: ١٥.

وكذلك ظلال الإنسان ، ولو نظرت إلى مقطع في الدماغ لرأيته ساجداً لله – جل جلاله – وإن كل جارحة من جوارح الإنسان التي تعتمد عليها حياته كالقلب والكبد ... إلخ أثناء أدائها لعملها في حالة سجود وخضوع لله – عز وجل – لأنها تؤدي العمل الذي فطرها الخالق عليه من غير اختيار الإنسان . جاء في كتاب الإعجاز العلمي في الناصية عن قوله – تعالى –: ﴿ **نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ** ﴾[1]. (إن الناصية وهي أعلى الجبهة هي المسؤولة عن صفات مثل الصدق والكذب والخطأ والصواب ... إلخ وهذه الصفات مجتمعة تكون الشخصية) . وإن وضع جبهتنا على الأرض فيه أقوى تفريغ للذنوب البشرية . قال – سبحانه –: ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾[2]. وهذا السجود عند المسلمين يدلل على أن أمتنا خاضعة ومنسجمة مع سجود الكون كله لرب العالمين .

---

(١) سورة العلق: ١٦.

(٢) سورة العلق: ١٩.

ثانيها: معنى المسجد

قال النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في حديث شريف نقتطف منه: (فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء) [صحيح مسلم]. أي أن مكان كل بقعة طاهرة في الأرض بالنسبة للمسلمين مسجد وهذا مما خص الله – تعالى – به أمة الإسلام ، فمثلاً هناك مكان عام تصلي فيه وتزرع هذا في مجال العموم ، أما بالمعنى الخاص فإن كلمة مسجد إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان ولو بسلك أو جدار وخص بأن يكون للصلاة والسجود وهذا هو المسجد الشرعي .

أما عن مضاعفة أجر الصلاة في المساجد قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام) [صحيح البخاري] . وقال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجدي ومسجد الأقصى) [صحيح البخاري] . هذا في فضل المساجد الثلاثة ومضاعفة أجر

الصلاة فيها ، أما عن بقية المساجد المنتشرة في بقاع الأرض فإن الصلاة فيها جماعة تزيد على صلاة الفرد وحده سبعاً وعشرين كما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أي أنها متساوية في الأجر والمنزلة .

ثالثها: التنوير الروحي في المساجد

وينتج عنه أعظم تغذية للروح وهي الجزء المهم في الإنسان ، وإن اطمئنانها يؤدي إلى راحة نفسية لأن المسلم في ضيافة الله - عز وجل - فكيف يكرم الله - تعالى - ضيفه . قال - جل وعلا -: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** ﴾(١).

وفي هذا المجال أذكر أنني سمعت في أحد المساجد شيخاً كبيراً كفيف البصر يقول لكفيف بصر آخر كيف صحتك ؟

---

(١) سورة النور: ٣٥-٣٦.

فيجيبه بأنني بخير ونعمة من الله – تعالى – ما دمت أستطيع الوصول إلى المسجد وأؤدي الصلاة فيه . فكيف وصل إلى هذه الحالة النفسية الرائعة التي يصرف الغربيون المبصرون الأموال الكثيرة عند الأطباء النفسيين للحصول عليها وبدون نتيجة ؟

إضافة لذلك فإن حركات الصلاة ، مثل رفع اليدين في التكبير والركوع والسجود والتسليم عن اليمين وعن الشمال فيها فوائد صحية للجسم معروفة عند المتخصصين . فالله – عز وجل – يدل الناس لما يحييهم إلى حياة طيبة ترتكز على المنهج الذي يريده ويحقق مصلحتهم ويصون خلقه . وإن عدم اتباع المنهج الرباني يؤدي إلى معيشة ضنكى . لذلك فإن المساجد نعم من نعم الله – سبحانه وتعالى – ورحمة للمسلمين فمن الحق إيصال هذه النعم والرحمة لجميع الناس.

رابعها: إعمار المساجد

ويتضمن الإعمار المادي ، ومنها البناء والترميم والتأثيث والإنارة والتبريد والتدفئة وأعمال الصيانة والتنظيف والحراسة ، والإعمار الروحي ومنها الأذان والإقامة والصلاة في جماعة . قال الرسول – صلى الله عليه

وسلم -: (صلاة الرجل في الجماعة تزيد على صلاته وحده سبعا وعشرين) [صحيح مسلم] . والصلاة في المساجد من أعظم شعائر الإسلام . قال - تعالى -: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾[1].

أما عن دور المرأة في إعمار المساجد . قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (إذا استأذنكم نساؤكم بالليل إلى المسجد فأذنوا لهن) [صحيح البخاري] . عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: (كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه) [صحيح البخاري] . وذلك لكي تنصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال .

ولا بد هنا أن نذكر ونتفكر في قوله - تعالى -: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[2]. إنه وصف رهيب للذين يسعون في خراب المساجد ماديا أو معنويا

---

(١) سورة التوبة: ١٨.

(٢) سورة البقرة: ١١٤.

حيث يصفهم الله – جل جلاله – بأتعس الظالمين ويتوعدهم بالخزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة .

خامسها: الآداب في المساجد

وهي كثيرة حيث أمر الله – عز وجل – بها ورسوله – صلى الله عليه وسلم – منها أن تكون رائحة المسلم عطرة ، وقد ثبت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (من أكل من هذه الشجرة يريد الثوم فلا يغشانا في مساجدنا قلت ما يعنى به قال ما أراه يعنى إلا نيئه) [صحيح البخاري] . وقال العلماء: كل ما له رائحة كريهة حكمه حكم الثوم مثل البصل وشارب الدخان .

والاغتسال يوم الجمعة قال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (من جاء منكم الجمعة فليغتسل) [صحيح البخاري] .

والوضوء قال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره) [صحيح مسلم] .

وتنظيف الأسنان قال النبي– صلى الله عليه وسلم –: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) [صحيح مسلم] .

ولباس أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف

ولا تسرفوا في الزينة . قال – تعالى –: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾[1].

ويتميز أهل المساجد بالسكينة والوقار حتى عند المشي حيث ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون عليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا) [صحيح البخاري] .

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك) [صحيح مسلم] . ثم يصلي ركعتين قبل الجلوس تحية المسجد . قال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس) [صحيح مسلم] . وتكون صلة العبد بربه في المساجد خالصة لله – تعالى – فلا يجوز الكلام في شؤون الدنيا مثل الأمور المادية ، ومن الأفضل حال دخولك المسجد أن تنوي الاعتكاف للاستفادة من هذا التنوير الإلهي،

---

(١) سورة الأعراف: ٣١.

وأن تقطع كل صلاتك وخاصة صوت الهاتف النقال لتبقى متواصلاً فقط مع عبادة الله – عز وجل – قال – تعالى –: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾[1].

ويتميز أهل المساجد بحسن المعاملة والدعوة الحسنة حتى مع الذين يسيئون التصرف بجهالة ، فقد قام إعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس فقال لهم النبي – صلى الله عليه وسلم –: (دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوباً من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) [صحيح البخاري] . ثم دعاه فقال له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشئ من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله – عز وجل – والصلاة وقراءة القرآن) [صحيح مسلم] .

ويتميز أهل المساجد بتنظيم العلاقات الاجتماعية مثل زيارة المرضى والتعارف فيما بينهم . وهذه الآداب في المساجد تدلل على أن أمتنا تتميز بالنظافة والحكمة والموعظة الحسنة والأخلاق العظيمة المأخوذة من نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) سورة الجن: ١٨.

سادسها: رعاية الله – تعالى – وحفظه لهذه المساجد

حيث بينت الحقائق العلمية أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في العالم ، وأن الكعبة هي قلب الأرض ، وقد حفظ الله – عز وجل – المساجد من الاختلاف وذلك بتوحيد القبلة.

وفي المسجد الحرام العبادة متواصلة على مدار الساعة وإلى يوم القيامة ، حيث يؤدي كوكبة من المسلمين الصلاة والطواف ، ثم يؤدي عشرات الآلاف من أهل المساجد في كل دقيقة الصلوات الخمس المفروضة بتنظيم مبرمج يعتمد أداؤها على موقع الشمس بالنسبة للأرض في موقع هذه المساجد المنتشرة في الأرض ، وهم يقرؤون القرآن الكريم في صلاتهم ، وهو أكثر كتاب يقرأ في العالم من خلال إحصائية عدد المسلمين الذي يتلونه في صلواتهم ، ويذكرون النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم – في الأذان والإقامة والتشهد وأن ذكره أعلى ذكر بين البشر من خلال هذه الإحصائية .

كذلك أمر الله – تعالى – المؤمنين حين سماع المؤذن ينادي لصلاة الجمعة أن يمضوا إلى سماع الخطبة وأداء

الصلاة في المساجد وترك البيع والشراء ساعة صلاة الجمعة. قال – عز وجل –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[1]. مما ينتج عنه أن عشرات الآلاف من أهل المساجد في كل دقيقة من يوم الجمعة على مدار الأرض يستمعون إلى الخطبة ويؤدون الصلاة في المساجد . أي أن أمتنا أكثر أمة تستمع لعلمائها بصورة مبرمجة وتحترمهم .

وكذلك تنظيم الوقت وهو طريقة حياة للوصول إلى الهدف وإنجاز الأعمال المهمة ، لذلك فإن أوقات الصلاة هي مقاييس رائعة لتنظيم الوقت عند المسلمين ، ويتجلى ذلك واضحاً في الساعات الخمس المعلقة في معظم المساجد ومؤشر عليها بدقة أوقات الصلاة الخمسة . قال – تعالى –: ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً** ﴾[2]. أي أن الأمة الإسلامية تلتزم بالصلوات في أوقات محددة وهي أكثر أمة تحترم الوقت .

---

(١) سورة الجمعة: ٩.

(٢) سورة النساء: ١٠٣.

وكذلك تميز صفوف المسلمين في الصلاة . قال الرسول- صلى الله عليه وسلم -: (فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ... الحديث) . [صحيح مسلم] . وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها فقلنا يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها قال يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف) [صحيح مسلم] . إن اصطفاف المصلين حول الكعبة بهذه الحلقات البديعة ، ثم يتبعها الآخرون في مئات الآلاف من المساجد يتراصون في صفوف مستقيمة هي مشيئة الله – عز وجل – وقد اختص بها أمة الإسلام .

وتجلت بعض آيات الله – عز وجل – في حفظه لبعض المساجد التي تعرضت المناطق المتواجدة فيها إلى كوارث طبيعية وذلك للعبرة ولفت أنظار الناس ، مثل الزلزال الذي وقع في تركيا يوم (١٩ – ٨ – ١٩٩٩ م) فهدم القرية الواقعة على بعد ستين ميلاً شرق اسطنبول المحيطة بالمسجد وسويت الأبنية بالأرض وبقي المسجد سالماً بعد الزلزال . ومن الملفت للنظر أن منارة المسجد التي تتميز بمركز ثقل

مرتفع بسبب قطرها القليل مقارنة بارتفاعها العالي نسبياً ، والمتوقع أن يؤثر فيها الزلزال للأسباب المذكورة ، ولكن الله – جل جلاله – حفظها وحفظ المسجد .

وكذلك حفظه لمسجد القرية الأبيض بقبابه الجميلة الشامخة على شواطئ إندنوسيا التي ضربها زلزال بحري عنيف يوم (٢٦ – ١٢ – ٢٠٠٤ م) مما تسبب في حدوث أمواج مائية عملاقة تدعى تسونامي ، دمرت مناطق ساحلية في سريلانكا وتايلاند والهند وإندنوسيا والأبنية حول المسجد المذكور ، وحفظ الله – جل وعلا – المسجد ومن التجأ إليه من الناس .

وفي الختام نسأله – تعالى – التوفيق لتوضيح كون هذه الميزات المباركة في مساجد المسلمين ، هي إرادة الله – عز وجل – ورعايته لها ومنارات للهدى ومراكز للإشعاع الروحي ونشر التوحيد والسلام في هذه الأرض وكون المساجد أعظم البيوت المباركة . وإن أول بيت بني لعبادة الله – جل جلاله – هو المسجد الحرام ، ثم ثانيها المسجد الأقصى ، والتي بنيت قبل الإسلام ، ثم بنى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – أول مسجد بعد الإسلام وهو قباء ،

ثم بنيت بجهود المسلمين مئات الآلاف من المساجد المنتشرة حول مكة المكرمة في عموم الأرض ، لكي يندمج أهلها مع الناس ويتواصلون بالدعوة الحسنة مع مختلف المجتمعات . فقد أذن الله – سبحانه – أن ترفع هذه المساجد باسمه وحده لا شريك له باتجاه القبلة ، لترمز إلى وحدة الأمة ولتكون حجج على الناس أجمعين . قال – جل وعلا –: ﴿ **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ** ﴾[1]. وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (أحب البلاد إلى الله مساجدها) [صحيح مسلم] . وهذه أكبر المبشرات على ازدياد عدد المساجد في الأرض فهي تشاد بإذن الله – تعالى – لتدلل على أن الإسلام هو الدين المهيمن والأوسع انتشاراً في المستقبل . قال – عز وجل –: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: ٩٧.

(٢) سورة الشورى: ٧.

الحقيقة العاشرة: الإسلام المنقذ من التطرف

حين ننظر اليوم إلى الأرض نظرة فاحصة ، نرى أن الديانات في قسم من دول الشرق كالهند والصين واليابان ، تقوم في العموم على التطرف في تغذية الروح ويؤمنون بتناسخ الأرواح ، ويقصد بها إحراق جثة الميت بغية حلول روحه في مخلوق آخر ، وتتركز عباداتهم على ترويض النفس ، حتى إن بعضاً منهم يميلون إلى التأمل والتطلع إلى هدف معين والنظر إليه لفترة طويلة ويفضل بدون رمش العين .

ويتميز الهنود الذين يتبع أغلبيتهم الديانة الهندوسية بكثرة الآلهة كالأبقار والنار ، ويتطلع قسم منهم إلى الطبيعة ويسكت ويطلق لأفكاره العنان ، وهم يجلسون القرفصاء ساعات عديدة على ضفاف نهر الجانج في مدينة بناريس والاستحمام فيه مهما كان البرد قارصاً لأنه من أعمال العبادة عندهم ، ويعيش بعض من كهنتهم في كهوف مظلمة يأكلون قليلاً ويحرمون اللحوم بما فيه لحم الدجاج والبيض .

أما الصينيون الذين يتبع قسم منهم الديانة الكونفوشيوسية فهم يعبدون ما يشاؤون من المعبودات مثل الأشجار

والأنهار، وقد كرس المعلم كونفوشيوس نفسه لشرح الآداب والتقاليد والعبادات الصينية القديمة ، وأكد على تعلقه بالطقوس الدينية وأهمية الروح . والديانة الثانية عندهم هي التاوية التي تؤمن أن انعدام الشهوات مجلبة للهدوء .

أما اليابانيون الذين يتبع قسم منهم الديانة البوذية فإن مؤسسها الأمير جوتاما (بوذا) نبذ حياته المترفة وترك القصر الملكي في زي راهب شحاذ يلتمس حلاً لمعضلة الحياة ، والمقصد الرئيسي له أن يحرم نفسه من كل الشهوات والملذات لأنها سافلة ومضرة ، وقد كانت عظته الأخيرة كما يقولون لا تنسوا أن الجسد دنس وأن لذته وألمه كلاهما سبب العذاب ، وتطورت البوذية إلى القول بأن بوذا يمثل تجسيداً إنسانياً لروح إلهية وهم يخشعون أمام تماثيله ، والراهب البوذي لا يأكل اللحم أبداً ولا يمتلك شيئاً ما عدا الضروري للاستعمال الشخصي . ويتبع قسم آخر الديانة الشنتوية أي طريق الأرواح الخيرة ، وهم يمارسون عباداتهم في هياكل خاصة تركز على الدعاء والتأمل التي تطابق ممارسات حياتهم الاجتماعية ذات التهجس الروحي ، وإن الإمبراطور عندهم هو ممثل سماوي فوض بحكم الأرض .

وأتباع هذه الديانات في العموم يحرقون جثة الميت ، حتى أن رئيس وزراء الصين السابق شو ان لاي أوصى برمي رماد جثته بعد الموت من الطائرة على عموم الصين.

ويلاحظ عموماً في هذه الأديان تجاوز حدود الفطرة السليمة من عبادة الله – عز وجل – إلى عبادة البقر والحجر والنار والشجر وغيرها ، حيث ألفتها أنفسهم وأصبحت عبادة متوارثة يتبعون فيها آبائهم من غير تفكر ، حتى إن قسماً من أذكيائهم يخشعون لهذه المعبودات ولا يخشعون للخالق . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

هذا التطرف الخاطئ في تغذية الروح عند قسم من أهل الشرق والتقيد بتعاليم الأقدمين وزهدهم في الحياة الدنيا ، جعلهم يتقبلون الاستسلام والانقياد بسهولة لما يريده الكهنة وأصحاب السلطة من عادات أو تقاليد أو أوامر بعض منها خاطئة ، كما يحدث الآن في الصين إذ تحدد الدولة النسل بقوانين صارمة تسمى بسياسة الطفل الواحد مما جعل الآباء ينصاعون لها ، وبسبب تفضيلهم الذكور للاستفادة منهم في الأعمال المجهدة إضافة إلى أن تربية البنات تكلف الأهل ثم ينضمون إلى عائلة الزوج ، لذلك اتخذوا الوسائل لإجهاض

الإناث بعد أن تكشف أجهزة السونار جنس الجنين في رحم أمه ، مما ينتج عنه زيادة نسبة الذكور وهذه تسبب آفات خطيرة للمجتمع على المدى الطويل .

يرادفه في الجانب الغربي من العالم تطرف مادي ، نتج عن ابتعاد كثير من أهل الغرب عن الدين وقيام نهضتهم على أساس غير ديني ، فهم عموماً انشغلوا بملذاتهم الجسدية واستندوا على القيم المادية وجعلوها مركز اهتمامهم الرئيسي، وأهملوا الجزء الروحي من الإنسان . مما نتج عنه تزايد نسبة الأمراض النفسية وما يتبعها من مشاكل اجتماعية، بموجب المعلومات الإحصائية المتواجدة في دول مثل السويد وفرنسا وبريطانيا وأميركا وغيرها ، والغربيون عموماً يوجزون حياتهم في أربعة مواضيع أساسية: هي الأكل والشرب ، والعمل ، والانتقال بوسائط النقل مثل المترو أو السيارات ، والنوم . أما تغذية الروح عندهم فإنها قليلة .

وسط هذا التطرف الشرقي والغربي وخلخلة النظام الديني ، يتواجد الإسلام الذي انبثق من أوسط بقاع الأرض وقلبها النابض مكة المكرمة ، لتكون مركزاً لإشعاع نور

الإسلام إلى البشرية جميعاً . قال – تعالى –: ﴿ **اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾[1]. وإن الله – عز وجل – اختار نبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم – خاتماً للنبيين وداعياً الناس إلى الوسطية في تغذية الروح والجسد ، فقد بلغ الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ثلاثة رهط أراد أحدهم أن يصلي الليل أبداً ، وأراد آخر أن يصوم الدهر ولا يفطر ، وعزم آخر على أن يعتزل النساء ولا يتزوج . فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم و أفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) [صحيح البخاري] . وأمر الله – تعالى – بتغذية الجسد والتمتع بالطيبات من الطعام والشراب والزينة وبدون إسراف فقال: ﴿ **وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٢) سورة الأعراف: ٣١-٣٢.

ويتبين أن منهج الإسلام يجمع باعتدال بين متطلبات الروح والجسد ، وأن الأمة الإسلامية تعطي لأهل الأرض قاطبة ما عندها من الحق . وبمشيئة الله – جل وعلا – دخل الإسلام إلى قلوب بعض من أهل الشرق في الهند والصين واليابان وغيرها ، بل شمل دخول كثير منهم في الإسلام كما حدث في أفغانستان وباكستان ، وكذلك حصل لبعض أهل الغرب كما تدل الإحصائيات في فرنسا وبريطانيا وأميركا وألمانيا وغيرها ، بل شمل دخول كثير منهم كما حصل في ألبانيا والبوسنة وكوسوفو ، وأن سنة الله – تعالى – ماضية في انتشار الإسلام في العالم بالرغم من كل الحملات الماكرة ضده . قال – سبحانه –: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾[1].

---

(١) سورة الشورى: ٧.

الحقيقة الحادية عشر: الإسلام الدين المهيمن في العالم

الإسلام شع بأنواره على العالم مبتدئاً من قلب الأرض مكة المكرمة . قال – تعالى –: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾[1]. أوحى الله – جل جلاله – إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – قرآناً باللغة العربية وتعهد بحفظه وهذا بالتالي يؤدي إلى حفظ أمة القرآن من الضلالة ، وقام النبي – صلى الله عليه وسلم – بالدعوة إلى عبادة الله – عز وجل – في مكة المكرمة ، وأجابه بادئ الأمر قليل من الناس وعاداه الكثير ممن يتميزون بالقوة ، وبالرغم من هذا الفارق الكبير في العدد والعدة كانت الدعوة تسير بصورة حسنة . ثم امتد الإسلام في سائر أنحاء العالم بطرق متعددة: مثل دخوله إلى الجزيرة العربية ومن حولها من الدول التي تبلغت به عن طريق الدعوة والجهاد ثم ترك لأهلها خيار الاعتقاد وقد قرروا أن القوامة للإسلام .

---

(١) سورة الشورى: ٧.

وامتد إلى قسم من دول آسيا المحيطة بروسيا عن طريق المحتل نفسه ، فقد دخل قسم من التتار في الإسلام بعد أن احتلوا عاصمة الخلافة بغداد ثم نشروه في هذه الدول .

كما دخل الإسلام لأكبر دولة إسلامية وهي إندنوسيا وبعض الدول المجاورة لها عن طريق التجار المسلمين بما يحملونه من أخلاق عظيمة .

أما في الوقت الحاضر فإنه ينتشر عن طريق دفاع أهله عنه ، والجهاد العلمي المبارك المستند على تكنولوجيا المعلومات من وسائل الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع والانترنيت وبرامج الحاسوب المختلفة وأجهزة الاتصالات المتنوعة . وسنضرب مثلاً معبراً عن كيفية دخول الإسلام إلى أميركا ، وما وصل إليه الحال في العصر الحاضر ، والدليل على هيمنته في المستقبل بإذن الله – عز وجل – . إذ كانت المسيحية هي الديانة الرئيسية التي يتعبد بها الناس في هذا البلد في القرن السادس عشر الميلادي ، حينها وصل إليها أول مسلم من أصل إفريقي لكسب الرزق ، ثم تواجد هناك بعض المسلمين من الأفارقة الذين استقدمهم الأوربيون للعمل في الزراعة وفيما يحتاجون إليه من أعمال أخرى ،

ثم اعتنق الإسلام مواطنون من أصل أمريكي كان من أوائلهم الدبلوماسي الكسندر راسل ويب سنة (١٨٨٨ ميلادية) عندما كان قنصلاً في مانيلا ، حيث أسس مركزاً للدعوة الإسلامية في نيويورك سنة (١٨٩٣ ميلادية) .

أما بخصوص الرؤساء الأمريكان ونتيجة للظروف السائدة في مطلع القرن العشرين ، فلم يتعرض أي منهم في تلك الفترة في خطاباته إلى الإسلام لقلة عدد المسلمين في أميركا آنذاك . ثم تغير الحال بصورة تدريجية ومع مرور الزمن انتشر نور الإسلام في أميركا بالحكمة والموعظة الحسنة بجهود المسلمين الوافدين إليها من أعراق مختلفة أو من أصل أميركي برفق يحمل معه التوحيد والسلام ، وبلغ عدد المسلمين عندهم في بداية القرن الحادي والعشرين أكثر من سبعة ملايين نسمة وعدد المساجد أكثر من ألفي مسجد . وأصبح الإسلام عنصراً فاعلاً في الساحة وله مستقبل مشرق. ونذكر أحد الأدلة على ذلك حدث عندهم في غمرة انشغال المسلمين بصوم رمضان ، وتحري ليلة القدر في العشر الأواخر منه ، واستعدادهم لاستقبال العيد ، حيث جاء خطاب الرئيس الأمريكي بوش في اليوم السادس والعشرين

من رمضان سنة (١٤٢٦ هجرية) المصادف لليوم التاسع والعشرين من تشرين الأول سنة (٢٠٠٥ ميلادية) ، حول موضوع الإرهاب الذي ألقاه بسبب الظروف الصعبة التي يمر بها نتيجة للأحداث الثلاثة التي تعصف ببلاده والتي تزامنت في نفس الفترة: وهي السلبيات المترتبة عن كارثة إعصار كاترينا ، وازدياد عدد القتلى من الجيش الأمريكي المحتل لأرض العراق حتى بلغ أكثر من ألفي قتيل ، وكذلك فضيحة توجيه الاتهام إلى لويس ليبي مدير مكتب ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي وأحد الأعمدة الرئيسية الداعم لشن الحرب على العراق ، في قضية تسريب هوية عميلة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أدت إلى قبول استقالته وتقديمه للمحاكمة . وقد ركز الرئيس الأمريكي على إرهاب الإسلام الراديكالي المتشدد الذي يؤمن بالعنف بخلاف سماحة الإسلام الحقيقي القائمة على حفظ النفس البشرية ، واستشهد في خطابه هذا بقوله – تعالى – في القرآن الكريم: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ**

جَمِيعاً ﴾[1]. وهذا الخطاب والطرح من رئيس أقوى دولة في العالم في الوقت الحاضر له أهمية بالغة ، ولا سيما أنه يذكر آية كريمة من القرآن العظيم ، وبغض النظر عما يريده بها من أهداف سياسية أو غير ذلك، إلا أن النتائج ستكون عكس ما خطط له ، بحيث تحفز المواطن الأمريكي أو أي إنسان مثقف يريد أن يصل إلى حقيقة الإسلام أن يدرس القرآن الكريم والسنة النبوية أو يسأل العلماء المسلمين وخاصة المتواجدين منهم في المساجد والمراكز الإسلامية لكي يطلع على حقيقة هذا الدين العظيم والخاتم للأديان . إضافة لذلك فقد بثت وسائل الإعلام الغربية في الآونة الأخيرة عن الإسلام تصريحات لمسؤولين أميركان أو أوربيين مختلفة في الرأي ، لذلك أصبح فهم حقيقة الإسلام له أهمية في حياتهم لكي يكون قرارهم ، إما على هدى إن كانت أنفسهم تواقة للحق وفي هذا خير كثير لهم ولبلادهم ، وإما في ضلال مبين لأنهم لا يدركون الشمس التي يتحسسها حتى الأعمى . قال - سبحانه -: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ**

---

(١) سورة المائدة: ٣٢.

أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ ﴾(١).

ونتيجة لاطلاعهم على القرآن الكريم والسنة النبوية وهذا التحليل المنطقي ، ستصل كوكبة جديدة من الأميريكان للحق، ومهما كان عددهم إلا أنهم سيساهمون مع بقية العاملين الذين أسلموا من قبل في نشر الإسلام مستقبلاً ، ولتكون أحد الشواهد التي تؤكد أن الإسلام الدين المهيمن في العالم ، وله القوامة منذ القرون الأولى لبزوغه ، وتنتشر دعوته بإذن الله – عز وجل – في القرن الحادي والعشرين وإلى يوم القيامة بالرغم من كل الحملات الماكرة التي تشن ضده ولبسهم الحق بالباطل . قال – تعالى –: **﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**(٢).

وفي الختام تتجلى إرادة الله – جل جلاله – واضحة لنصرة الإسلام وتمكينه في الأرض ، لما فيه من قيم إنسانية عظيمة ومقاصد فاضلة ومصالح مشتركة تربطه مع البشرية

---

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: ٧١.

لتحقيق الأمن والسلام والطمأنينة للإنسان ، ولكن كثير من الناس لا يدرون حكمته وغافلون عن هيمنة هذا الدين . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: ٢١.

الحقيقة الثانية عشر: مقاصد الكتاب في القرآن

وردت كلمة (**الكتاب**) مائتين وثلاثين مرة في القرآن الكريم لأهميته في حياة الناس ، وله مقاصد متعددة قسم منها يخص الحياة الدنيا والآخر يخص يوم القيامة . وسنسلط الضوء على عشرة من المقاصد الدنيوية:

أولها: يقصد بالكتاب الكتب

وأعظم الكتب شأناً السماوية المنزلة على الأنبياء – عليهم السلام – مثل قوله – تعالى –: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ** ﴾[1]. ونقتطف مما يقوله القرطبي في تفسيره: (الكتاب إسم جنس بمعنى الكتب) . وجاء ذكر التوراة والإنجيل مرات عديدة ، مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾[2]. وجعل الله – تعالى – للقرآن الكريم الهيمنة على الكتب السماوية التي سبقته . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ**

---

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) سورة المائدة: ٦٨.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[1].

وحسبك دليلاً على أهمية وشرف القلم والكتابة أن الله – جل وعلا – أقسم به تمجيداً لشأن الكاتبين ورفعاً من قدر أهل العلم فقال: ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾[2]. ونقتطف مما يقوله صاحب صفوة التفاسير: (ففي القلم البيان كما في اللسان ، وبه قوام العلوم والمعارف قال ابن كثير: والظاهر من قوله – تعالى – ﴿ **وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ** ﴾ أنه جنس القلم الذي يكتب به ، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره. قال – تعالى –: ﴿ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[3]).

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) سورة القلم: ١.

(٣) سورة العلق: ٤-٥.

ثانيها: يقصد بالكتاب اللوح المحفوظ

ونأخذ أمثلة على ذلك مثل قوله – عز وجل –: ﴿ **إِنَّـهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ** ﴾[1]. قال ابن عباس: (هـو اللوح المحفوظ) .

وقال – تعالى –: ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَـرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[2]. أي سجل ولوح محفوظ يحصي تفصيل كل شئ بقدرة الله – عز وجل – ومدون فيه أصغر أجـزاء الذرة في الأرض أو في السماء ، وجاءت هذه الآية لتـشير إلى حقيقة علمية اكتشفت أوائل القرن العشرين ، وهـو أن هذا الشئ الصغير الذي يسمى بالـذرة ولا يـرى بـالعين المجردة فيه قوة كامنة إن استعملت في الحرب فهي مـدمرة وإن استعملت في الخير فهي مفيدة ، وأنه من الممكن تحطيم الذرة صناعياً وتقسيمها لتكون هناك أجـساماً أصـغر مـن الذرة. وهذا هو إعجاز القرآن العظيم عندما يبين دقة اللوح المحفوظ ويربطها بحقيقة علمية رهيبة.

---

(١) سـورة الواقعة: ٧٧-٧٨.

(٢) سورة يونس: ٦١.

وقال – سبحانه –: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[1]. أي ما من شئ يدب في الأرض إلا تكفل الله – جل جلاله – برزقه ويعلم مأواه ومستودع رزقه ، وكل ذلك مسطر في اللوح المحفوظ . والدليل على ذلك هذا العالم العجيب من الدواب وأنواع الأرزاق التي يحيون بها .

وقال – تعالى –: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[2]. أي أن هذا اللوح المحفوظ مسجل فيه الأمور الخفية في الماضي والحاضر والمستقبل ويعلم الله – عز وجل – كل شئ في هذا الكون الواسع وأن كل ذرة فيه خاضعة لقدرة رب العالمين .

وقال – سبحانه –: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى**

---

(١) سورة هود: ٦.

(٢) سورة الأنعام: ٥٩.

اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]. وقال – تعالى –: ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾**[2]. أي أن لكل أمر قضاه الله – عز وجل – ومنه الموت مكتوب في اللوح المحفوظ .

ثالثها: يقصد بالكتاب صحائف أعمال البشر

ويسجل في هذه الصحائف ما عملوا من خير أو شر في الدنيا ، ويخرجها الله – عز وجل – يوم القيامة . قال – تعالى –: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾**[3]. وقال: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾**[4]. إن أعمال الكفار في الدنيا مدونة في كتاب دقيق ومرقم وكذلك أعمال الأبرار المطيعين لله – عز وجل – وذلك لأهمية العمل في الحياة الدنيا .

---

(١) سورة الحديد: ٢٢.

(٢) سورة الرعد: ٣٨.

(٣) سورة المطففين: ٧-٩.

(٤) سورة المطففين: ١٨-٢٠.

رابعها: يقصد بالكتاب المكاتبة

مثل قوله – تعالى –: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾[1]. أي كتاب تحرير الرقيق حيث التزم الإسلام بتحرير العبيد من رق العبودية من الذكور والإناث ، إذ أمر الله – جل جلاله – بمساعدتهم في انجاز هذه المكاتبة وتيسيرها وإعطائهم من المال ما يسهل لهم إجراءات كتاب تحرير الرقيق ، لأن الله – تعالى – خلق الناس من رحم واحدة وأصل واحد . قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – في موضوع المساواة في خلق الإنسانية لأهميته: (... الناس بنو آدم وآدم من تراب). [مسند أحمد وسنن الترمذي] .

خامسها: يقصد بالكتاب الرسائل

مثل موضوع الرسالة التي بعثها النبي سليمان – عليه السلام – مع الهدهد إلى ملكة سبأ بلقيس . قال –

---

(١) سورة النور: ٣٣.

عز وجل -: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

سادسها: يقصد بالكتاب الفرض

مثل قوله - سبحانه -: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً ﴾[2]. أي فرض الصلوات الخمس على المؤمنين محدداً في أوقات معلومة لأهميتها .

وقوله: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾[3]. بين الله - جل جلاله - المحرمات من النساء ولأهمية الموضوع قال: ﴿ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي فرض الله عليكم .

سابعها: يقصد بالكتاب المعلومات

مثل الأحكام أو الحقائق العلمية أو غيرها ، حيث توجد أكثر من ألف آية تشير إلى حقائق علمية في القرآن الكريم أو غير ذلك من الآيات . قال - تعالى -: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ

---

(١) سورة النمل: ٢٩.

(٢) سورة النساء: ١٠٣.

(٣) سورة النساء: ٢٤.

اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[1]. ونقتطف مما يقوله الشوكاني صاحب تفسير فتح القدير: (وقوله فيها كتب قيمة صفة لصحف أو حال من ضميرها والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة).

ثامنها: يقصد بالكتاب الدليل الشرعي

مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[2]. زعم المشركون من أهل مكة أن الملائكة بنات الله – جل وعلا – بدون برهان واضح لذلك وبخهم الله – عز وجل – وطلب منهم أن يأتوا بالدليل الشرعي الذي يثبت أقوالهم الباطلة .

---

(١) سورة البينة: ٢-٣.

(٢) سورة الصافات: ١٥٦-١٥٧.

تاسعها: يقصد بالكتاب عدة النساء المتوفى عنهن أزواجهن

لا يجوز عقد النكاح قبل انتهاء العدة لأهميتها في تنظيم شؤون النسل . قال – تعالى –: ﴿ **وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ** ﴾[1].

عاشرها: يقصد بالكتاب مقدرات الحياة من الأعمال والأرزاق والأعمار وغير ذلك

قال – سبحانه –: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ** ﴾[2]. ونقتطف مما يقوله صاحب تفسير مختصر ابن كثير عن الضالين المكذبين: (وقال محمد القرظي: ﴿ **أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره ، وهذا القول قوي في المعنى ، والسياق يدل عليه).

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٥.

(٢) سورة الأعراف: ٣٧.

أما مقاصد الكتاب في يوم القيامة فقد وردت بصورة تذكر الإنسان بأهمية الآخرة وعظم هذا اليوم مثل قوله – جل وعلا –: ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ** ﴾[1]. وهذه حقيقة علمية تحدث يوم القيامة حيث تختل الجاذبية وتطمس النجوم وتنشق السماء وتنتثر الكواكب وتطوى السماء كطي السجل للكتب . في هذا اليوم الرهيب يخرج الله – عز وجل – كتاب الأعمال لكل إنسان مسجل فيه ما عمل من خير أو شر . قال – تعالى –: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً** ﴾[2]. ولتسهيل تصور الأمر يوم القيامة ، نضرب مثلاً من الدنيا ولله المثل الأعلى ، حيث توصل العلماء إلى صناعة أجهزة تسجل خدمة الموظف لعشرات السنين في دائرته على مايكرو فيلم يعرض على شاشة في وقت قصير عند احتياج معلومات عنه ، وأنه من الممكن استخراج معلومات لمليارات الناس بواسطة أجهزة الحاسوب.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٢) سورة الإسراء: ١٣.

ويلاحظ أن الصفات المشتركة بين الكتب في الحياة الدنيا عموماً كونها مدونة في سجلات ، أما كتب أعمال البشر في يوم القيامة فإنها مكتوبة وناطقة . قال – عز وجل –: ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(١).

وفي الختام ندعو المساهمين في إنشاء معارض الكتاب الدولية في العالم وروادها وكل الناس المهتمين بشؤون الكتب ، إلى دراسة مقاصد الكتاب في القرآن الكريم ، لسمو أهدافها وأهميتها في حياة الناس وأن يعلموا أن أول خطاب إلهي وجه إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – فيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم لأنه شعار دين الإسلام . قال – تعالى –: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾(٢).

---

(١) سورة الجاثية: ٢٩.

(٢) سورة العلق: ١.

الحقيقة الثالثة عشر: أضواء على (الأنباء) في القرآن

النبأ: هو الخبر الذي له شأن عظيم ، والجمع أنباء . ولأهمية النبأ أعطاه القرآن الكريم منزلة عظيمة ، وسميت سورة كاملة باسم سورة النبأ . وسنسلط الضوء على تسعة أخبار قرآنية نافعة تخص حياة الناس الدنيوية:

أولها: القرآن الكريم هو نبأ هام وخبر عظيم الشأن . قال – سبحانه –: ﴿ **قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ** ﴾[1]. جاء في تفسير الجلالين: (﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ **هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي القرآن الذي أنبأتكم به وجئتكم فيه بما لا يعلم إلا بوحي) . وتشير المعلومات الإحصائية أن القرآن الكريم هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم من خلال صلوات المسلمين بأوقاتها الخمس المرتبطة بجريان الشمس ، وهو الكتاب الحكيم الذي لا تنقضي عجائبه وفيه أكثر من ألف آية تشير إلى حقائق علمية .

ثانيها: أنباء مهمة من الله – عز وجل – للناس وضرورة التفكر بها لما فيها من مواعظ حسنة:

---

(1)[سورة ص: ٦٧-٦٨]

مثل قوله – تعالى –: ﴿ **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[1]. وهذه أنباء عن آدم – عليه السلام – حيث خصه الله – سبحانه – بمعرفة الأسماء ، والأشياء ، والأجناس ، واللغات . يقول صاحب صفوة التفاسير: (إن الله – تعالى –أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة) .

وقوله: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾[2]. وهذه أخبار مهمة من الله – عز وجل – تدل على وحدانيته في إلوهيته بعد ذكره كثيراً من النعم التي يتنعم بها الإنسان ، ويضرب مثلاً معبراً لمن يلجأ لغير الله – تعالى – بالدعاء والعبادة ، فإنهم ما يملكون من قطمير ، والقطمير هو الغشاء الرقيق حول نواة التمرة . ولو تفكر الناس بخبر آخر ضربه الله – سبحانه –

---

(١) سورة البقرة: ٣٣.

(٢) سورة فاطر: ١٣-١٤.

عن الهدهد وحرصه لنشر التوحيد ، فما بالهم بالإنسان الذي كلف بحمل الأمانة؟ لقوله على لسان الهدهد: ﴿ **فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ...** ﴾[1].

وقوله: ﴿ **قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[2]. وهذه أخبار عجيبة عن أقوال المشركين تنم عن جهلهم ، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، أتخبرون الله – عز وجل – بشريك أو شفيع كائن في السماوات أو في الأرض لا يعلمه – جل وعلا – وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات.

وقوله: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ** ﴾[3]. وفي هذه الآيات إخبار من الله – عز وجل – على من تتنزل الشياطين .

---

(١) سورة النمل: ٢٢-٢٦.

(٢) سورة يونس: ١٨.

(٣) سورة الشعراء: ٢٢١-٢٢٦.

وقوله: ﴿ **نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ...** ﴾[1]. وفي هذه الأخبار توبيخ للمشركين لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحل الله من الطعام .

وقوله: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾[2]. وهذه الأخبار تخص الذين بطل عملهم وهم يظنون أنهم محسنون بأفعالهم .

ثالثها: نبأ تحريم القتل ظلماً . أخبر الله – تعالى – عن بداية أتعس جريمة بحق الإنسانية وهي القتل ارتكبها ابن آدم قابيل بقتل أخيه هابيل . وإن جزاء القاتل النار وخسارة الدنيا والآخرة . ثم غلظ الأمر على بني إسرائيل بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء . لذلك فإن المسلم مأمور بالابتعاد عن قتل النفس البشرية ظلماً أو السعي فيه لأنه حرام في دين الإسلام. قال – سبحانه –: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ**

---

(١) سورة الأنعام: ١٤٣-١٤٥.

(٢) سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤.

بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ من أَحَدهمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ منَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ منَ الْمُتَّقِينَ... ﴾[1].

رابعها: أنباء فيها حكم ومواعظ حسنة وردت في صحف إبراهيم وصحف موسى – عليهما السلام – لقوله –تعالى –: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾[2]. يقول صاحب صفوة التفاسير بصدد قوله – تعالى –: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾[3]. (أي أن هذه المواعظ المذكورة في هذه السورة ، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى – عليهما السلام – فهي مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد) .

خامسها: أنباء عن قصص القرآن وما فيها من مواعظ وعبر:

---

(١) سورة المائدة: ٢٧-٣٠.

(٢) سورة النجم: ٣٦-٣٧.

(٣) سورة الأعلى: ١٤-١٩.

مثل قصص قرى هالكة في التاريخ كقوم نـوح وهـود وصالح ولوط وشعيب إذ فنيت أشخاصهم وخمدت أنفاسـهم بسبب كفرهم وعاداتهم الغير مشروعة . قال – سـبحانه –: ﴿ **تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** ﴾[1].

وأنباء عن ثلاث قصص: أما الأولى فهي قصة أصحاب الكهف وما فيها من مفاهيم . قال – جل وعلا –: ﴿ **نَحْـنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِـرَبِّهِمْ وَزِدْنَـاهُمْ هُدًى** ﴾[2]. أما الثانية فهي للخضر والثالثة لذي القرنين وما فيهما من كرامات أظهرهما الله – سبحانه – على يـديهما ، وفي القصص الثلاث حقائق تأخذ بالألباب منشورة في كثير من الكتب . قال – تعالى – على لسان الخضر الذي فـسر الأحداث العجيبة للنبي موسى – عليه السلام –: ﴿ **قَالَ هَذَا**

---

(١) سورة الأعراف: ١٠١.

(٢) سورة الكهف: ١٣.

فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً... ﴾[1].

وأنباء عن قصة النبي موسى – عليه السلام – وما فيها من معاناة ، ومعجزات ، وآيات بينات . مثل قوله – سبحانه – للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ **كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾**[2].

وأنباء عن قصص فيها معجزات مادية محسوسة ، مثل قوله – سبحانه – على لسان النبي عيسى – عليه السلام –: ﴿ **وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾**[3].

وأنباء عن المغيبات يوحيها الله – جل وعلا – لأنبيائه ، مثل قوله – تعالى – للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ما جاء من أخبار عجيبة في قصة النبي يوسف – عليه السلام – وما فيها من محن . ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾**[4].

---

(١) سورة الكهف: ٧٨-٨٢.

(٢) سورة طه: ٩٩.

(٣) سورة آل عمران: ٤٩.

(٤) سورة يوسف: ١٠٢.

وأخبار مهمة قصصها الله – تعالى – على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد – صلى الله عليه وسلم – من أنباء الرسل السابقين ، بقصد تثبيت فؤاده لأداء الرسالة ، وكيف نصر الله – عز وجل – حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين ، وسنته ماضية في تأييد ونصر المؤمنين بالرغم من كل الفتن المحيطة بهم . قال – تعالى –: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[1].

سادسها: أنباء القضاء وأهميته في حياة الناس وضرورة تثبت القاضي من حكمه بسماع كلام المشتكي وخصمه . قال – سبحانه –: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ...** ﴾[2].

سابعها: أخبار الحقائق وأهميتها في الدعوة لله – عز وجل – مثل قوله: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ**

---

(١) سورة هود: ١٢٠.

(٢) سورة ص: ٢١-٢٦.

نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (أي ما هذا القرآن إلا عظة وذكرى للإنس والجن والعقلاء ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب) . وقال الفراء: (﴿ **بَعْدَ حِينٍ** ﴾ بعد الموت وقبله) . وتتجلى واضحة أنباء الحقائق العلمية في القرآن الكريم وأهميتها في دخول الناس - وخاصة العلماء - إلى الإسلام .

ثامنها: تحذير مهم للمؤمنين من الاستماع للأخبار الآتية من أي فاسق وبثها بدون التثبت من صحتها . لقوله - سبحانه -: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ** ﴾[2].

تاسعها: نبأ الذي يفضل الحياة الدنيا على الآخرة ويبدل معتقداته من توحيد الله - عز وجل - إلى الضلالة ابتغاء الحصول على المناصب الزائلة والأموال الباطلة ، فيكون في زمرة الضالين الهالكين . قال - تعالى -: ﴿ **وَاتْلُ**

---

(١) سورة ص: ٨٧-٨٨.

(٢) سورة الحجرات: ٦.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾(١).

أما أنباء يوم القيامة فهي مهمة جداً ، وأهم من أخبار الدنيا ، لأن من نتائج هذا اليوم العصيب ، عرض حسنات وسيئات الناس في سجلات دقيقة كل حسب العصر الذي عاش فيه ، وإعلام الله – تعالى – لهم فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، فمثلاً إلزام اليهود للعمل بالتوراة والنصارى بالإنجيل الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، كل في زمن نزوله . ثم أنزل القرآن الكريم على خاتم الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم – مصدقاً للكتب السماوية التي سبقته ومؤتمناً وحاكماً عليها ، من لجأ إليه وعمل به نجا ونتيجته النجاح والخلود في الجنة ، ومن أعرض عنه واستهزأ به هلك ونتيجته الفشل والخلود في النار . قال – تعالى –: **﴿ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾**(٢).

---

(١) سورة الأعراف: ١٧٥.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

وفي الختام تتجلى أمامنا واضحة ابتلاءات هذا الزمان للعاملين في وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب ، وخصوصاً منهم العاملين في القنوات الأرضية والفضائية والانترنيت ، حيث تنتقل أخبارهم بسرعة لآذان وعيون وأفئدة ملايين الناس ، فإن كان فيها نشر للإسلام وما فيه من قيم الخير والحجاب والسلام العادل والإصلاح تضاعفت حسناتهم ، وإن كان فيها نشر لقيم الشر والرذيلة والتبرج والحروب الباطلة والفساد تضاعفت سيئاتهم ، وعلى الإنسان العاقل أن يبتعد عن فضائح الدنيا الزائلة ، فكيف بعقاب فضائح الآخرة الباقية؟ قال - عز وجل -: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾[1].

---

(١) سورة محمد: ٣١.

الحقيقة الرابعة عشر: مقاصد الكلام في القرآن

الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير ، وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه ، ويطلق على الجمل المفيدة . جاء في شرح ابن عقيل: (الكلامُ المصطلحُ عليه عند النحاة – علماء النحو – عبارة عن" اللفظ المفيد فائدةً يَحسنُ السكوتُ عليها ") . وسنركز على أربعة مواضيع قرآنية تخص الكلام في الحياة الدنيا وحياة البرزخ وآخر الزمان ويوم القيامة:

أولها: مقاصد الكلام في الدنيا وهي اثنا عشر:

١- يقصد بكلمات الرب دعواته وتكاليفه الشرعية مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[١]. أي استقبل آدم – عليه السلام – دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها . وقوله: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾[٢]. أي اختبار الله عبده إبراهيم بجملة من التكاليف الشرعية .

---

(١) سورة البقرة: ٣٧.

(٢) سورة البقرة: ١٢٤.

٢- يقصد بكلام الله الكتب السماوية مثل قوله - تعالى -: ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ** ﴾[١]. أي طائفة من أحبار وعلماء اليهود كانوا يسمعون التوراة ثم يغيرون الآيات بالتبديل أو التأويل . وقوله: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾[٢]. يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه إن استأمنك مشرك من القتل فأمّنه حتى يسمع القرآن الكريم .

٣- يقصد بكلمات الله الإسلام . قال - عز وجل -: ﴿ **وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾[٣]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام) .

٤- يقصد بكلام الله إلى أي بشر أن يكون وحياً في المنام أو بالإلهام أو من وراء حجاب أو يرسل ملكاً بالوحي إلى الرسول . لقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا**

---

(١) سورة البقرة:٧٥.

(٢) سورة التوبة: ٦.

(٣) سورة الأنفال: ٧.

وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[1].

٥- من الرسل من كلمه الله - جل وعلا - بلا واسطة مثل النبي موسى - عليه السلام - لقوله - تعالى -: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[3].

٦- المعجزات الإلهية في الكلام . مثل قوله - سبحانه -: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾[4]. أي أن كلمة الله - عز وجل - بشان خلق النبي عيسى - عليه السلام - هي (كن) من غير واسطة أب . وهو كلمة الله لما انتُفع به في الدين كما انتُفع بكلامه . وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ

---

(١) سورة الشورى:٥١.

(٢) سورة البقرة ٢٥٣.

(٣) سورة النساء: ١٦٤.

(٤) سورة النساء: ١٧١.

النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾[1]. أي معجزة كلام النبي عيسى – عليه السلام – مع الناس وهو في المهد طفلاً .

٧– يقصد بكلمات الله – تعالى – العلم الإلهي اللامحدود مثل قوله: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾[2]. وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[3].

٨– جهل قوم موسى – عليه السلام – وذلك بعبادتهم العجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم إلى سبيل الرشاد فكيف يتخذوه إلهاً . قال– سبحانه –: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ** ﴾[4]. وكان جهل

---

(١) سورة المائدة: ١١٠.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.

(٣) سورة لقمان: ٢٧.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٨.

المشركين أكبر وذلك بمطالبتهم أن يكلمهم الله – جل وعلا – لقوله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ** ﴾[1].

٩- يستعمل الكلام بضرب الأمثال للعبرة: مثل قوله – عز وجل –: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً** ﴾[2]. وهذا مثل رائع ضربه الله – تعالى – عن المعاندين من الكفار حتى لو شاهدوا سير الجبال أو تصدع الأرض أو كلم الموتى به لما آمنوا . وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ** ﴾[3]. وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾[4]. يقصد بالكلمة الطيبة كلمة الإيمان ، والكلمة الخبيثة كلمة الإشراك .

---

(١) سورة البقرة: ١١٨.

(٢) سورة الرعد: ٣١.

(٣) سورة الأنعام: ١١١.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٤-٢٦.

١٠- كلمات حق فيها أجر عظيم . مثل قوله - تعالى -: ﴿ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[١]. أي كلمة التوحيد باقية في ذرية النبي إبراهيم - عليه السلام - وقوله: ﴿ **وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا** ﴾[٢]. أي كلمة التوحيد هي الغالبة أعز الله بها المسلمين . وقوله: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾[٣]. أي إليه - جل وعلا - يرتفع كل كلام طيب من ذكر ، ودعاء ، وتلاوة قرآن ، وتسبيح وتمجيد . وقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً** ﴾[٤]. أي يا محمد قل لمعشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة وهي أن نفرد الله - عز وجل - بالعبادة . وقوله: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ﴾[٥]. وهذا يخص واقعة صلح الحديبية

---

(١) سورة الزخرف: ٢٨.

(٢) سورة التوبة: ٤٠.

(٣) سورة فاطر: ١٠.

(٤) سورة آل عمران: ٦٤.

(٥) سورة الفتح: ٢٦.

حيث جعل الله – تعالى – الطمأنينة في قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة – رضي الله عنهم – واختار لهم كلمة التوحيد لإخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله .

١١– كلمات باطلة فيها إثم عظيم . مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** ﴾[١]. أي عظمت تلك الكلمة القبيحة الباطلة التي تخرج من أفواه الضالين الذين يقولون: ﴿ **اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** ﴾ . وقوله: ﴿ **وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾[٢]. وهذا يخص حديث الأفك وهو كلام باطل بحق أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – زوجة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقذفها بالفاحشة فنزل الوحي ببراءتها . وقوله: ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى** ﴾[٣]. جعل الله –تعالى – كلمة الشرك سافلة حقيرة .

---

(١) سورة الكهف:٤–٥.

(٢) سورة النور: ١٦.

(٣) سورة التوبة: ٤٠.

١٢- يقصد بكلمات الله وكلمته وعده وقضاءه . مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ** ﴾[١]. في الآية إرشاد إلى الصبر ووعد الله – عز وجل – لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بالنصر. وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** ﴾[٢]. أي سبق وعدنا وقضاؤنا للرسل الكرام إنهم هم المنصورون على أعدائهم ، وإن نصر الله للمؤمنين محقق في الدنيا بالحجة والبرهان وفي الآخرة بدخول الجنة.

ثانيها: بعد موت الإنسان وانفصال الروح عن الجسد وذهابها للبرزخ ، وهو منزل الروح للفترة ما بين مفارقة الدنيا واستقبال الآخرة ، تستمر كلمات الروح بطلب الرجوع للدنيا فإذا كانت طيبة متنعمة في حياتها البرزخية تريد منزلاً أعلى . عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك – يقول النووي:

---

(١) سورة الأنعام: ٣٤.

(٢) سورة الصافات: ١٧١-١٧٢.

يعني النبي صلى الله عليه وسلم - (فقال أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً قالوا أي شئ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) [صحيح مسلم] . أما عن أرواح المشركين بعد الموت فهي تتعذب وتتكلم من وراء البرزخ تطلب الرجوع للدنيا لكي يعملوا صالحاً ولكن الامتحان قد انتهى فلا جدوى من الكلام لقوله - تعالى -: ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[1].

ثالثها: في آخر الزمان ومن أشراط الساعة خروج الدابة للكفار تكلم الناس وهي آية خارقة للعادة لقوله - سبحانه -: ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ**

---

(١) سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]. ولو نظر الإنسان وتفكر في تسبيح دواب الأرض وخاصة الطير التي تطير بجناحيها وهي أمم لها أنظمة حياة دقيقة وموزونة تفوق الوصف وهذه الدابة تكلم هؤلاء الكفار المجرمين وكأنما تقول لهم لو تفكرتم فقط في عالم الدواب وتسبيحها بحيث أن كل خلية فيهم لا تستطيع إلا أن تسير بموجب ما قدره الخالق لها لما كفرتم وظلمتم ولكن ﴿ **النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾** .

رابعها: أما في يوم القيامة يقف جبريل والملائكة مصطفين لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن الله له بالكلام لقوله –تعالى –: ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾**[2]. وقوله: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾**[3]. أي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ، فالصمت الهائل يغشى الجميع ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فيكون منهم شقي

---

(١) النمل: ٨٢.

(٢) سورة النبأ: ٣٨.

(٣) سورة هود: ١٠٥.

في النار ومنهم سعيد في الجنة . في هذا اليوم الرهيب يقول الله – عز وجل –: ﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾[1]. ويتكلم الكفار في يوم القيامة قائلين: ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا** ﴾ . أي من النار وردّنا إلى الدنيا لنعمل صالحاً ﴿ **فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾ فيكون الجواب بالتيئيس والزجر﴿ **قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾[2]. أي ذلوا في النار ولا تكلموني في رفع العذاب . وقال – سبحانه –: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[3]. عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فضحك فقال: (هل تدرون مم أضحك قال قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانه – أي جوارحه –

---

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة المؤمنون: ١٠٨.

(٣) سورة يس:٦٥.

انطقي ، قال فتنطق بأعماله قال ثم يُخلى بينه وبين الكلام قال فيقول بُعداً لكنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل) [صحيح مسلم] .

وفي الختام ننتقل إلى مشهد مخيف وهو استغاثة المجرمين من النار يطلبون النجدة ولكن لا أحد يخرجهم منها قال – تعالى –: ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ** ﴾[1]. يقول صاحب الظلال: (والخطاب لرسول الله– صلى الله عليه وسلم – وإذا كان هو لا يملك إنقاذهم من النار التي هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟) .

---

(١) سورة الزمر: ١٩.

الفصل الثالث: حقائق علمية

الحقيقة الأولى: القرآن وعلم ميكانيك التربة

يتضمن القرآن الكريم في آياته العلمية حقائق نهائية مطلقة إلى يوم القيامة ، أما النظريات النسبية المكتشفة من قبل العلماء ، فما زال كثير منها يتغير وينقض بنظريات نسبية جديدة . ونضرب مثلاً على ذلك قوله – تعالى –: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾[1]. فهذه الآية تثبت حقيقة نهائية مطلقة إلى يوم القيامة وهي جريان الشمس ، أما العلم فقد حدد سرعة الشمس وأنواع حركاتها وهذه نظريات نسبية غير نهائية قابلة للتعديل .

ومن الحقائق النهائية المطلقة إلى يوم القيامة ظاهرة اهتزاز التربة عند نزول الأمطار ، وذلك بسبب كون أصناف التربة الرئيسية التي يشملها موضوع هذه الدراسة ، وهي التربة الطينية أو الغرينية أو الرملية أو المزيجية من هذه الأصناف ، وبسبب تغير حجوم هذه الجزيئات والتي

---

(١) سورة يس: ٣٨.

تكون صغيرة جداً في حالة الطين ، وبقطر أصغر من (٢ مايكرون) ، وتكون حجوم جزيئات الغرين أكبر من حجوم جزيئات الطين ، وبقطر (من ٢ إلى ٧٥ مايكرون)، وتكون حبوم جزيئات الرمل أكبر من حجوم جزيئات الغرين ، وبقطر (من ٧٥ مايكرون إلى ٧٥و٤ ملم) .

وتتناسب المساحة السطحية عكسياً مع حجم جزيئات التربة لنفس الوزن ، ولنضرب مثلاً على ذلك: حصاة ذات وزن معين تم تكسيرها إلى أجزاء صغيرة فإن المساحة السطحية للأجزاء الصغيرة أكبر من المساحة السطحية للحصاة التي تم تكسيرها .

ومن الحقائق العلمية وجود مسامات (فراغات بينية) بين جزيئات التربة ، يتخللها الهواء الذي يُدفع نتيجة لنزول الأمطار ويحل محله الماء ، فإذا امتلأت هذه الفراغات تكون التربة حينئذ مشبعة بالماء ، ينتج عنها دفع هذه الجزيئات وحركتها بقوة ضغط الماء في هذه الفراغات البينية . وقد أمكن وضع مقاييس متخصصة بهذا الفحص في عدة أصناف من التُرب المذكورة وقراءتها قبل وبعد نزول الأمطار ،

حيث وجد أن تمدد التربة الطينية نتيجة لهطول الأمطار وضغط الماء العالي بسبب انحصار الماء داخل الطبقة واستحواذه على كمية ماء كبيرة ، مقارنة بالتربة الغرينية والرملية ، أكبر من تمدد التربة الغرينية ، وذلك بسبب كبر المساحة السطحية لجزيئات الطين كما ذكرنا سابقاً . وأن اختلاف هذا التمدد وحسب نوع التربة يؤدي بالتالي إلى اهتزازات في الأرض لا تُحس ولا تُشاهد إلا بوجود هذه المقاييس ومراقبة هذه الظاهرة بالبحث العلمي . ومن الممكن ضرب مثال لبعض الظواهر التي لا يمكن تحسسها بالعين المجردة إلا بوجود مقاييس متخصصة لقياسها ، مثلاً تمدد التبليط بالكاشي المعرض لحرارة الشمس ، وقد يصل أحياناً إلى دفع الكاشي عند عدم وجود مفاصل التمدد بصورة كافية.

وقد رصد ظاهرة اختلاف تمدد التربة واهتزازها نتيجة لهطول الأمطار العالم البريطاني براون سنة (١٨٢٧ ميلادية) . ولكن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة المطلقة إلى يوم القيامة قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء**

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[1].

يقول صاحب تفسير الجلالين: (﴿ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً** ﴾ يابسة ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ** ﴾ تحركت ﴿ **وَرَبَتْ** ﴾ ارتفعت وزادت ﴿ **وَأَنبَتَتْ مِن** ﴾ زائدة ﴿ **كُلِّ زَوْجٍ** ﴾ صنف ﴿ **بَهِيجٍ** ﴾ حسن) .

ويبين القرآن الكريم في هذه الآية العجيبة إعجازه مرة أخرى حول تحديد أنواع هذه التربة في قوله - سبحانه -: ﴿ **وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ أي أن التربة موضوعة البحث هي تربة صالحة للزراعة والإنبات وليست صخرية أو حصوية .

أما بشأن التربة الرملية فقط ، كما يحدث في كثير من الصحاري ، فإن الماء يغور في الأرض إلى أعماق بعيدة بسبب نفاذيته العالية ولا تحدث ظاهرة اهتزاز التربة . قال - جل جلاله -: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ** ﴾[2].

---

(١) سورة الحج: ٥.

(٢) سورة الملك: ٣٠.

يقول السيد محمد علي الصابوني في تفسيره صفوة التفاسير: (﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ أي قل لهم يا محمد: أخبروني إذا صار الماء غائرا ذاهباً في أعماق الأرض، بحيث لا تستطيعون إخراجه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ﴾ أي فمن الذي يخرجه لكم حتى يكون ظاهراً جارياً على وجه الأرض؟ هل يأتيكم غير الله به؟ فلم تشركون مع الخالق الرازق غيره من الأصنام والأوثان؟).

وتم تأكيد موضوع ظاهرة اهتزاز التربة بعد نزول الأمطار مرة أخرى بصورة ملفتة للنظر في سورة فصلت، ليدحض الله – عز وجل – مجئ هذه الآية بالصدفة وليبين إعجاز القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – سيد المرسلين وخاتم النبيين من العزيز العليم ونحن في أوائل القرن الحادي العشرين. قال – جل وعلا –: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1].

ومن العجيب الذي تخشع له العقول وتسجد له الأدمغة قبل الأجسام في سورة فصلت والتي فيها معجزات كثيرة،

---

(١) سورة فصلت: ٣٩.

منها مواضيع خلق السماوات والأرض ، وما جاء بشأن شهادة حواس الجسم البشري المتميزة لكل إنسان يوم القيامة، وبالتالي إعجاز اهتزاز وتمدد الأرض بعد نزول الأمطار والمذكورة في هذه السورة أيضاً أن تختتم سورة فصلت بآيتين تخص المستقبل لقوله – عز وجل –: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** ﴾(١).

---

(١) سورة فصلت: ٥٣-٥٤.

الحقيقة الثانية: القرآن وعلم الأرض

يتضمن القرآن الكريم في آياته العلمية حقائق نهائية مطلقة إلى يوم القيامة . ومن هذه الحقائق وصف الله – تعالى – للجبال كالأوتاد وأشار إليها بإيجاز معجز بقوله: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾[1]. وسنقوم بدراسة هذه الكلمة القرآنية المذهلة للعقل البشري والتي ذكرها القرآن قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة .

وردت كلمة ﴿ **الْأَوْتَادِ** ﴾ مرتين في القرآن الكريم وذلك في قوله – عز وجل –: ﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ** ﴾[2]. وقوله: ﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ** ﴾[3].

وقد أجمع المفسرون بشأن الأوتاد أنها جمع وتد ، وقد وصف فرعون بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها ويربطونها بالأوتاد ، وكذلك تعذيبه الناس وذلك بدقه أربعة أوتاد ويشد إليها يدي ورجلي من يعذبه . وقد أضاف صاحب تفسير الكشاف للمعاني المذكورة: (أنه نقل عن

---

(١) سورة النبأ: ٧.

(٢) سورة ص: ١٢.

(٣) سورة الفجر: ١٠.

الضحاك أن المراد بالأوتاد المباني العظيمة الثابتة ورجحه ابن عطية) . ولا يخفى على القارئ الكريم أن المباني تحتاج إلى أسس مثبتة لها وأن من البديع في هذه الإضافة مطابقتها أيضاً لموضوع هذه الدراسة .

وقال – سبحانه –: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴾[1]. وقد أجمع المفسرون أن كلمة أرساها تعني أثبتها . ونورد نموذجا منها جاء في صفوة التفاسير: (أي والجبال أثبتها في الأرض ، وجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها) .

وذكر أيضاً الشيخ عبد المجيد الزنداني في كتابه التوحيد بشأن الأوتاد قائلاً: (إن تحت كل جبل عرقاً لهذا الجبل وامتداداً له قد غرس في الطبقة العجينية أو اللزجة التي تحت طبقة الصخور ، وقد جعل الله هذا الامتداد تحت كل جبل ماسكاً للقارات من أن تطوف أثناء دوران الأرض ، فهذه الأوتاد المغروسة في الطبقة اللزجة التي تحت القارات تثبت القارات كما يثبت الوتد الخيمة إذا غرس بين التراب . ولكن هذا السر الذي لم يتأكد منه الباحثون إلا عام – ١٩٥٦ م – كما ذكر ذلك الدكتور فاروق الباز المختص

---

(١) سورة النازعات: ٣٢.

في علم الجيولوجيا والفضاء ومدير معهد - سميس سونيان - لعلوم الأرض والفضاء ، إن هذا السر قد ذكره القرآن قبل ألف وأربعمائة عام فقال - تعالى -: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾ أي جعلها أوتاداً في هذه الأرض) .

ولو نظرنا إلى قوله - جل جلاله -: ﴿ **أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ** ﴾[1]، لعلمنا الكيفية التي مكنت الجبال من الانتصاب على القشرة الأرضية بتلك الحقيقة العجيبة والآية المعجزة في قوله - عز وجل -: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾ .

يقول الدكتور حسن باحفظ الله في مجلة الإعجاز - العدد الأول لسنة ١٩٩٥ ميلادية -: (أخيراً وصلنا - كبشر - إلى مرحلة من المعرفة مكنتنا بعون الله من رسم العديد من الخرائط تحت السطحية في أجزاء عديدة من الكرة الأرضية، أمكن من خلالها إثبات أن الجذور تحت السطحية تتناسب طرداً مع ما يعلوها من تراكيب ، فهي ضحلة في حالة المنخفضات ، وعميقة جداً في حالة الجبال العالية .

---

(١) سورة الغاشية: ١٧-١٩.

ليس هذا فقط بل أمكننا أن نقيس أطوال هذه الجذور . أليست هذه الحقائق التي ثبتت الآن بيقين هي ما أشار إليها كتاب الله الكريم عندما قال جل من قائل: ﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾[1]. مشيراً إلى ما خفي على الإنسان من دور ووظيفة الجبال في ثبات واستقرار الأرض التي يعيش عليها هذا الإنسان . وفي قوله – تعالى –: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾ . مشيراً إلى الشكل الحقيقي للجبل وجذره الخفي الممتد أسفل منه كل ذلك في كلمتين سهلتين واضحتين) . وقد أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إلى حقيقة وجود جذور للجبال مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** ﴾[2]. ونقتطف مما يقوله صاحب معجم لسان العرب: (والنسف – القلع ونسفت البناء نسفاً إذا قلعته والمنسفة آلة يقلع بها البناء ، وبعير نسوف يقتلع الكلأ – النبت – من أصله بمقدّم فيه) . أي قلع الجبال من جذورها يوم القيامة .

---

(١) سورة النحل: ١٥.

(٢) سورة المرسلات: ١٠.

وقوله: ﴿ **وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً* فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً** ﴾[1].

ونقتطف مما يقوله القرطبي في تفسيره: (وقال الحسن: ﴿ **وَبُسَّتِ** ﴾ قلعت من أصلها فذهبت) . ويقول ابن منظور في معجم لسان العرب: (﴿ **وَبُسَّتِ** ﴾: فتت فصارت أرضا ، وقيل نسفت ، كما قال – تعالى –: ﴿ **يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** ﴾) . فأي توافق عجيب بين القرآن والعلم .

ويتضح بالأدلة القطعية أن الوتد الذي يدق في الأرض يقع قسم منه خارج الأرض وقسم منه مغروس داخلها لتثبيته، وكذلك الجبال فقد أثبت علمياً أن للجبال في العموم جذوراً (أسساً) مغروسة داخل الأرض تقوم بتثبيتها . ولتسليط الضوء على موضوع جذور الجبال وقياس أعماقها، نوجز باختصار شديد أهم الطرق العلمية وإمكانية إجراء دراسات استكشافية لدراسة القشرة الأرضية تخص الموضوع وما يصاحبها من متطلبات علمية ومادية للتحري عن أعماق هذه الجذور:

---

(١) سورة الواقعة: ٥-٦.

أولا: الطرق الميكانيكية للحفر:

وتعتمد أخذ نماذج على أعماق متفرقة مدروسة ، وهذه صعبة جداً بسبب الأعماق البعيدة والتي قد تمتد إلى آلاف الأمتار ، وما تواجه الحفارات الميكانيكية للحفر في الصخور من صعوبات ، بالإضافة إلى عدم وجود جدوى اقتصادية للحفر وذلك لتحديد عمق جذور الجبال فقط مقارنة بالحفريات التي تجري لآبار النفط ، فقد تصل إلى آلاف الأمتار وقد تلاقي طبقات صخرية قوية إلا أنها ذات جدوى اقتصادية معروفة .

ثانياً: طرق الاستكشاف الجيوفيزيائي: وأهمها:

١- الطريقة الرادارية:

وهذه تعتمد على إرسال موجات الكترومغناطيسية بواسطة جهاز الجيورادار تنعكس عندما تواجه طبقات معينة، وتستعمل لأعماق محدودة في الوقت الحاضر ، وهي غير كفوءة بموجب تقنية أجهزة الوقت الحاضر لإجراء الدراسات لآلاف الأمتار تحت الأرض .

٢- الطريقة الزلزالية:

وهذه تستند على مبدأ إرسال موجات زلزالية مرنة سواء

كانت (صناعية أو طبيعية) وهذه تخترق صخور القشرة الأرضية ، وتعاني انعكاسات وانكسارات خلال مرورها داخل الطبقات لتعود هذه الموجات إلى سطح الأرض ، ويتم استلامها بواسطة لاقطات خاصة ودراستها لاحقاً لكي يتم تحديد الطبيعة الصخرية للطبقات وسماكاتها . ومن الممكن استخدام هذه الطريقة لأغراض هندسية أي للطبقات القريبة من سطح الأرض وكذلك لأعماق أكبر للبحث عن المكامن النفطية وكذلك لأعماق سحيقة لدراسة أغلفة الأرض . وهذه الطريقة تحتاج إلى خبرات علمية وأجهزة متخصصة وإمكانيات مادية لاستحصال معلومات تخص أعماق جذور الجبال .

٣- الطريقة الكهربائية:

وهذه تعتمد على إرسال تيار كهربائي في التربة وتعمل بكفاءة مع الرطوبة ، وهي غير ملائمة لإجراء الدراسات لتحديد عمق جذور الجبال التي قد تمتد إلى آلاف الأمتار وبموجب تقنية أجهزة الوقت الحاضر .

٤- الطريقة الجذبية:

وهذه تعتمد على قوة السحب عن طريق قياس مقدار

انحراف البندول ، ومن الممكن أن تصل إلى مسافات عميقة، ولا توجد لدينا معلومات باستعمالها لإجراء الدراسات لتحديد عمق جذور الجبال .

٥- الطريقة المغناطيسية:

وهذه تعتمد على قياس شدة المجال المغناطيسي ، وتستعمل في أكثر الأحيان لاكتشاف المعادن والكنوز تحت الأرض ولأعماق قد تصل مئات الأمتار ، وبموجب تقنية أجهزة الوقت الحاضر .

ويتبين من هذه الدراسة حقيقة وجود جذور في العموم مغروسة في داخل الأرض للجبال ، وتطلبها إجراء دراسات علمية وأجهزة متخصصة لتحديد أعماق هذه الجذور ، لا سيما إذا علمنا تعدد الدول المصنعة لهذه الأجهزة واختلاف التكنولوجيا بينها وأسرار المهنة لإنتاج مثل هذه الأجهزة ، حيث أن لكل منها جداول معتمدة خاصة بها ، ولا نعلم ما سيحدث في مجال تطور وابتكار الأجهزة العلمية والاكتشافات المستقبلية بهذا الخصوص وذلك من علم الله -

سبحانه – القائل في محكم كتابه: ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴾[1].

وفي الختام يتضح مدى إعجاز الكلمة الواحدة في القرآن الكريم ، وتطلبها الدراسة والتحليل واحتياجها لتطور العلوم البشرية والتقدم العلمي المستقبلي ، وبالتالي فهي آية من آيات رب العالمين القائل في محكم كتابه: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾[2].

---

(١) سورة ص: ٨٨.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.

الحقيقة الثالثة: الفطرة الخارقة للبناء الهندسي في عالم النحل

لقد ميز الله – عز وجل – نحل العسل عن جميع الكائنات الحيوانية ، وذلك بإلهامها هذه الفطرة العجيبة . فقال: ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[1].

وتتألف طائفة النحل من الملكة وهي أم الطائفة ، حيث تلقح في الهواء الطلق أثناء طيرانها بواسطة ذكر واحد أو أكثر ، وتحتفظ بالحويمنات المنوية حية طوال حياتها التي قد تصل إلى عدة سنوات في القابلة المنوية والتي تعد من العمليات الفسيولوجية العجيبة ، وبعد رجوع الملكة إلى الخلية تكون مهمتها الأساسية وضع البيض ، حيث تضع عادة بيضة واحدة غير ملقحة في كل عين سداسية شمعية كبيرة ينتج عنها ذكر ، أو تفرز من القابلة المنوية فتضع

---

(١) سورة النحل: ٦٨-٦٩.

بيضة واحدة ملقحة في كل عين سداسية شمعية صغيرة وينتج عن البيضة الملقحة شغالة أو (ملكة في حالة الضرورة) ، وهذه النظرية هي أقرب ما توصل إليه العلم من الصواب . وأن البيض الذي تضعه الملكة يكون قائماً في اليوم الأول في قاع العيون السداسية ومائلاً في اليوم الثاني ومنبطحاً في اليوم الثالث ، والملكة تتحكم في إنتاج عشرات الآلاف من الشغالات (إناث عقيمة) ومئات فقط من الذكور وعدد من الملكات في حالة الضرورة وحسب حاجة الخلية . ومن المعروف أن أعداد الشغالات عادة أكثر من أعداد الذكور بمئات المرات ، وهذا من الإعجاز أيضاً مقارنة ببقية الكائنات الحية ، لذلك فإن الشغالات تبني عيوناً سداسية كثيرة العدد صغيرة الحجم مخصصة لحضنة الشغالات ، وتبني عيوناً سداسية قليلة العدد كبيرة الحجم مخصصة لحضنة الذكور ، والحضنة تعني (مجموعة البيض واليرقات والعذارى بأطوار مختلفة) ، وتبني نوع ثالث يسمى بالعيون الانتقالية والتي تكون غير منتظمة وتقع بين النوعين السابقين أو في الأقراص المتضررة ، وتستعمل عادة لخزن الغذاء ولا تصلح لتربية الحضنة ، وتبني البيوت

الملكية بتحوير العيون السداسية الصغيرة التي تتحول يرقتها إلى ملكة بشكل يشبه حبة الفول السوداني نتيجة لمتطلبات جسم الملكة .

ولقد خاطب القرآن الكريم النحل كمجموعة ولم يخاطبها بصيغة المفرد (أي النحلة) لأن نحلة العسل غاية في التخصص ولا تستطيع العيش بمفردها وتتقن عملها ، إلا أن يكون جماعياً ضمن مجموع الطائفة في الخلية . وبذلك يتحقق هذا التوازن البديع والإنتاج المدهش لعالم النحل .

إن عملية البناء في الخلايا التي يديرها النحال تبدأ بتركيب الأساس الشمعي التجاري ، وهو لوح رقيق (جدار خفيف) مصنع من الشمع الطبيعي قائم بصورة عمودية مطبوع على جانبيه قواعد العيون السداسية إلا أنها غير متطابقة (متفاوتة) ، ومن الإعجاز أن أشكال قواعد العيون السداسية تبين أن التفاوت الموجود بين منظر العيون السداسية من جهة واحدة ومنظرها من الجهة الأخرى يؤدي إلى إضافة تقوية لقواعد العيون (الجدار الخفيف الفاصل) على شكل ثلاثة أضلاع تلتقي في وسط العيون ، حيث أن العذارى إذا تحركت أو حاولت اختراق الجدار المذكور

ستفشل بسبب هذه التقوية ، وهذا التركيب الإنشائي المعجز يفيد أيضاً برفع مقاومة قواعد العيون ضد أي قوة أفقية أخرى ، ثم تقوم الشغالات ببناء العيون السداسية الشمعية على جهتي الجدار الخفيف وتسمى هذه المجموعة بالقرص الشمعي ، أما في الخلايا الطبيعية فتقوم الشغالات ببناء العيون السداسية الشمعية وبضمنها قواعد العيون وعلى نفس النسق المذكور أعلاه .

ومن العجيب في هذا الشكل الهندسي ميلان العيون السداسية قليلاً إلى الأعلى والغرض من هذا الميلان هو المحافظة على محتويات العيون من الانزلاق .

وعادة يبنى القرص الشمعي في البدء من الأعلى نازلاً نحو الأسفل ، ويكون معلقاً بالالتصاق في الإطار الأفقي العلوي للخلية المصنعة أو السقف في الخلية الطبيعية ، ويثبت جيداً عند منطقة اتصاله العليا بواسطة الشمع ومادة البروبوليس ، ويمتاز هذا القرص الشمعي بكونه أكثر سمكاً في الأعلى منه في الأسفل وذلك لأن الحمل يزداد مع الارتفاع . وعادة يكون سمك جدران العيون السداسية الكبيرة أكبر من سمك جدران العيون الصغيرة ، وذلك

لتتحمل الأثقال المسلطة حسب توزيع القوى . ويترك النحل مسافات مدروسة بين كل قرص وآخر وكذلك من أسفل القرص الشمعي .

ومن المدهش أن عدد الشغالات التي تبني الأقراص الشمعية وخلال فترة قصيرة من حياتها هو عدد قليل مقارنةً بالعدد الكلي لأفراد الطائفة ، لذلك يلقى على عاتق هذه المجموعة جهد كبير ومضني وبدون استراحة . ومن الملفت للنظر أن الشغالات تقوم بطلاء العيون السداسية من الداخل لتكون شبه دائرية بمادة البروبوليس ، وهي مادة صمغية تجمعها الشغالات من بعض النباتات خاصة بعد كل استعمال للعيون السداسية ، وذلك لتقوية الجدران وليلائم جسم الملكة عند التبييض وكون الاستدارة مريحة لحركة الشرنقة وأغراض أخرى ، لذلك تكون الأقراص الشمعية القديمة ذات وزن أكبر من الأقراص الجديدة .

ويظهر من الشكل السداسي بأنه أفضل شكل من الناحية التركيبية العملية والإنشائية لو قورن بأشكال أخرى كالمربع أو المثلث أو غيرهما ، ونضرب أمثلة على ذلك: ففي الشكل المثلث والمربع توجد مساحات ضائعة خارج الطلاء الشبه

دائري وحسب متطلبات الخلية ، وكذلك فإن زيادة عدد الجدران في الشكل المثمن ونتيجة لاختلاف زوايا الشكل ، ينتج عنها مساحات ضائعة على شكل معين بين الأشكال المثمنة وإضعاف التركيب الإنشائي ، وكذلك تكون ضائعات في الشكل الدائري أو على شكل عشرة جدران . أما في الشكل السداسي والذي تتلاقى أضلاعه بصورة متقنة ، ينتج عنها تشكيل هندسي معماري متكامل نتيجة لتطابق الأضلاع السداسية مع بعضها . وبذلك يتضح الإعجاز بصورة جلية في أشكال العيون السداسية من الناحية المعمارية والإنشائية.

ومن الممكن أخذ نماذج من بيوت النحل لما فيها من إجهادات وإجراء تحليلات هندسية عليها بواسطة التحليل بطريقة العناصر المحددة باستعمال الحاسوب الإلكتروني . فمن أي جامعة تخرج هذا النحل ومن علمه هذا البناء الخارق ؟ إنه الله الخالق العظيم .

والنحل أنواع مثل النحل العملاق والنحل الصغير وغيرها ، وكل نوع يتصف ببناء غرف سداسية بحجوم مناسبة للنوع نفسه وكذلك سمك الجدران وغيرها ، لذلك لا يجوز أن يقال بيت النحل لأن معناها يوحي أن لكل أنواع

النحل بيتاً بشكل واحد ، وهذا خلاف شكل البناء عندهم ، وأن عدم تغير شكل البناء لكل نوع من أنواع النحل منذ آلاف السنين لأنه يعتمد في بنائه على الإلهام الغريزي الذي فطره الله – تعالى – عليه ، وأن كل العاملات المشاركات في البناء ماهرات ويتم التفاهم فيما بينهم لبناء الخلية بهذا التنظيم البديع الذي يحير العقول . أما البشر فلديهم علوم مكتسبة لذلك فإن بناءهم يتطور ويحتاج إلى تخصص عمال ماهرين ومساعدين لهم بمستوى أقل .

ومن المعجز في هذه الباب وبعد إجراء مقارنة لتقريب صورة هذا البناء إلى الذهن أن الرسام أو المهندس الذي يريد أن يرسم شكلاً لآلاف العيون السداسية لقرص شمعي واحد تم بناؤه من قبل عاملات النحل ، ليحتاج إلى قلم ومسطرة ومثلث متحرك و ستينسل دوائر وإضاءة جيدة ، أما عاملات النحل فتقوم ليس برسمها فقط ، وإنما ببنائها أيضاً ، وبدون هذه الأدوات الهندسية وفي ظلام دامس وبهذه الأشكال الدقيقة ، حيث العيون السداسية الصغيرة لحضنة الشغالات والكبيرة لحضنة الذكور والبيوت الملكية ، والذي يظهر فيه نظام فوضوي ولكنه في الحقيقة منظم لا يدركه

الحس البشري ولكن النحل يتصرف ببنائه بإلهام الغريزة الربانية المعجزة والمذهلة للعقل البشري .

فمن علّم النحل الرسم في الظلام والاستغلال الأمثل للمساحات وهذه الأشكال البديعة للعيون السداسية ؟ أليس هذا إعجازاً للمهندسين المعماريين ؟ ومن علم النحل البناء في الظلام وتوزيع القوى ونوعية مواد البناء الداخلة في بناء الخلية وصلاحيتها وبدون الحاجة للفحوصات المختبرية ؟ أليس هذا إعجازا للمهندسين الإنشائيين ؟ . قال – جل وعلا –: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾[1]. ومن الإعجاز أيضاً قيام الشغالات بتغطية العيون السداسية الحاوية على العذارى بغطاء مسطح مصنوع من خليط الشمع وحبوب اللقاح ، فيكون الغطاء مسامياً يسمح بمرور الهواء اللازم لتنفس العذارى ، أما العسل الناضج في العيون السداسية فيختم بالشمع فقط وهو غير مسامي ، وذلك لضرورة المحافظة على العسل من التبخر . ومن الإعجاز أيضاً قيام بعض الشغالات وعند ارتفاع درجة الحرارة بنقل الماء ورشه داخل الخلية ويهز

---

(١) سورة طه: ٥٠.

البعض الآخر أجنحته ليصنع تيارات من الهواء فيتبخر بسرعة ومع التبخر تنخفض درجة الحرارة .

ومن الواضح مخاطبة القرآن الكريم للشغالات (العاملات) في كلماته الواردة في الآيتين (٦٨-٦٩) من سورة النحل (أن اتخذي ، كلي ، فاسلكي ، بطونها) ، وعلى العموم تقوم الشغالات بكل أعمال الخلية إلا أنها غير مسؤولة عن إنتاج النسل في الطائفة . فأي توافق عجيب بين القرآن والعلم .

وفي الختام يتبين أن هذا التشريف والتكريم للنحل في القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين وسيد المرسلين كاف وحده أن يأخذ بالعقول المدركة والمستنيرة لمعرفة الله - عز وجل - وتقود هذا الإنسان لعبادة الله - تعالى - وتسبيحه ليكون متجانساً ومتناسقاً مع هذا الوجود .

قال - سبحانه -: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: ٤٤.

الحقيقة الرابعة: القرآن والحقائق العلمية

أعطى القرآن الكريم يوم القيامة اهتماماً عظيماً ، فقلما نجد سورة من سوره إلا وتذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما حتى بلغت أكثر من ثلاثمئة آية ، وكذلك عُني الإسلام بهذه العقيدة وجُعلت من أركان الإيمان ، لأهميتها في استقرار أمور الناس واستقرار الحق بينهم .

ومن إعجاز القرآن ذكره لحقائق علمية موجودة ومحسوسة في الكون يعبر عنها بكلمة واحدة ، ثم يبين تغير حالها بحلول يوم القيامة على شكل حقيقة علمية أخرى وانقلاب هائل يسيطر على النفس الإنسانية ويهزها من الفزع بكلمة واحدة أيضاً ، لكي يقنع الناس ولا سيما العلماء في مجال اختصاصهم بضرورة التفكر في هذه الحقائق المدهشة والإيمان بهذا اليوم الرهيب وما فيه من ثواب وعقاب .

ونضرب مثلاً على ذلك موضوعاً معروفاً في علوم البحار تناوله القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿ **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ﴾[1]. ويلاحظ من سياق الآيات الأربع التي جاءت

---

(١) سورة الطور: ٦.

قبل الآية المذكورة أن الله – عز وجل – يقسم بأمور عظيمة وحقائق معلومة ومهمة وموجودة وهي: (﴿ **وَالطُّورِ** ﴾ ، ﴿ **وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ** ﴾ ، ﴿ **وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ** ﴾ ، ﴿ **وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ** ﴾) . وهي مشروحة في كتب التفسير .

واتضح بالبراهين العلمية أن البحر المسجور ، أي الموقد ناراً هو أيضاً بحر موجود وحقيقة علمية تؤكد أنه ينشأ بسبب الحمم البركانية السفلية المتوهجة ، والتي تفتح لها منفذاً بالقوة وبخاصة من خلال شقوق قاع البحار ، حيث تنتشر الغازات الحارة مسببة تسخين المياه ، كما حدث في قاع المحيط الهادي قرب جزر هاواي ، أما حال جميع البحار يوم القيامة فقد ذكرها القرآن بأسلوب يهتز له كيان الإنسان . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ** ﴾[1]. وهذا الحدث الكوني العظيم يشير إلى مدى الانقلاب الشامل في عالم البحار ، ومن الملفت للنظر أن سورة الانفطار التي جاءت بعد سورة التكوير ذكرت هذه الحقيقة وفسرتها بآية واحدة في قوله – سبحانه –: ﴿ **وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ** ﴾[2].

---

(١) سورة التكوير: ٦.

(٢) سورة الانفطار: ٣.

وفعلاً إذا تتبعنا أحوال الحمم البركانية والأبخرة الناتجة من تفاعلاتها مع مياه البحر والغازات التي تتمدد وما تسببه من الانفجارات ، نشعر حقاً أننا أمام مشهد رهيب من مشاهد الجحيم .

ومن الحقائق القرآنية المعجزة في مجال علوم الأرض ، وجود جذور (أسس) للجبال في العموم داخل الأرض ، كما ذكرنا في مقالنا المنشور في العدد (العاشر) من مجلة التربية الإسلامية (السنة الرابعة والثلاثون) ، وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً** ﴾[1].

أما حال الجبال يوم القيامة فيذكرها القرآن الكريم بشكل منسجم مع انقلاب نظام الكون في ذلك اليوم العصيب . قال – تعالى –: ﴿ **وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ** ﴾[2]. يقول صاحب مختصر تفسير ابن كثير بشأن الموضوع: (وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة وذهابها ونسفها أي قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش) . وقد ذكر أصحاب المعاجم أن كلمة النسف تعني القلع ،

---

(١) سورة النبأ: ٧.

(٢) سورة المرسلات: ١٠.

ونورد مثالاً مما قاله صاحب معجم لسان العرب: (والنسف – القلع – ونسفت البناء نسفاً إذا قلعته والمنسفة آلة يقلع بها البناء ، وبعير نسوف يقتلع الكلأ – النبت – من أصله بمقدّم فيه) .

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة العجيبة بصورة ملفتة للنظر بقوله – عز وجل –: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً* فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً** ﴾[1]. ونقتطف مما قاله صاحب تفسير فتح القدير: (﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ** ﴾ أي عن حال الجبال يوم القيامة ، وقد كانوا سألوا النبي محمداً – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك فأمره الله – سبحانه – أن يجيب عنها فقال: ﴿ **فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** ﴾، قال ابن العربي وغيره: يقلعها قلعاً من أصولها) .

ويقول صاحب صفوة التفاسير: (﴿ **فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً** ﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿ **لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً** ﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً) .

---

(١) سورة طه: ١٠٥-١٠٧.

ومن المعروف أن الكلمة الواحدة في اللغة العربية قد تعطي معاني متعددة ، كذلك في كلمة ﴿ **نَسْفاً** ﴾ جاءت لتعطي معاني متعددة أيضاً ، ولكن لا تتعارض مع موضوع نسف الجبال ، بل تؤدي إلى نفس المضمون ، كأن نقول نسفت الريح التراب نسفاً أي قلعته وبعثرته ، أو نسف الطعام ، أو ما قام به سيدنا موسى – عليه السلام – من حرق العجل الذي صاغه السامري من بني إسرائيل بالنار ثم تذريته رماداً في البحر بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ، قال – عز وجل – على لسانه: ﴿ **لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً** ﴾[1]. وأكد القرآن الكريم مرة أخرى حقيقة وجود جذور للجبال وسيتم قلعها يوم القيامة في قوله – سبحانه –: ﴿ **وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً* فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً** ﴾[2]. ونقتطف مما يقوله القرطبي في تفسيره: (وقال الحسن: ﴿ **وَبُسَّتِ** ﴾ قلعت من أصلها فذهبت) . ويقول ابن منظور في معجم لسان العرب: (﴿ **وَبُسَّتِ** ﴾: فتت فصارت أرضا،

---

(١) سورة طه: ٩٧.

(٢) سورة الواقعة: ٥-٦.

وقيل: نسفت ، كما قال – تعالى –: ﴿ **يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً** ﴾) .

ويتبين بالأدلة القطعية أن عموم الجبال تتعرض للقلع من جذورها ، وهذا إثبات آخر وحقيقة علمية تؤكد أن للجبال في العموم أسساً داخل الأرض ، وأن من علامات يوم القيامة التي تهز كيان البشر ذلك المشهد الرهيب الذي يذهل العقول المتدبرة ولا سيما المتخصصين منهم في علوم الأرض والتربة وخبراء المتفجرات . وحبذا لو طلب من الخبراء إعداد الدراسات والمقارنة بين إجراء تفجيرات لفتح طريق جبلي لمرور السيارات ، مع تفجير وقلع جبل واحد من أساسه ، لقرر الخبراء مدى صعوبة المقارنة ، فكيف بقلع آلاف الجبال من أسسها المتجذرة في الأرض لأعماق تتفاوت من مئات الأمتار إلى آلاف الأمتار ، وما ينتج عنه من اضطراب شديد سواءً في حركة الصهير البركاني داخل الأرض أم عدم استقرار القارات أم غير ذلك . وإننا نتساءل هل يستطيع أن يتصور هذه المقارنة عقل بشر ؟ ولا ندري كيف يتم هذا وكيفيته مجهولة عند البشر . قال – تعالى –: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ**

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[1].

ومن الحقائق القرآنية المعجزة في مجال علوم الفلك آية القسم بمواقع النجوم . قال – عز وجل –: ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾[2]. وقد أثبت علمياً تحرك النجوم بسرعات هائلة في مسارات تشغل النجوم فيها حيزاً ضئيلاً وأن مواقعها بعيدة جداً عن الأرض، وتخضع لقوانين محكمة ، والفرق بين حجومها هائل ، وأعدادها كثيرة جداً تفوق حدود التصور والخيال ، ولو كانت مبعثرة بلا نظام أو حدث تغيير عشوائي في هذه المواقع ، فإنه سيؤدي إلى تلاحم قسم من النجوم واضطراب واختلال في النظام الكوني مفزع للتصور البشري .

أما مستقبل هذه النجوم يوم القيامة فقد ذكرها القرآن بكلمات معجزه ومذهلة تؤدي إلى حقائق علمية . يبين ذلك قوله – عز وجل –: ﴿ **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** ﴾[3]. أي انطفأ

---

(١) سورة إبراهيم: ٤٨.

(٢) سورة الواقعة: ٧٥-٧٦.

(٣) سورة المرسلات: ٨.

نورها ومحي أثرها ، والطمس كلمة مناسبة لمادة النجوم ذات الخاصية الملتهبة ، لأنها متكونة من النيران .

وقوله: ﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ** ﴾[1]. أي ذهب صفاؤها وأظلمت وانطفأت شعلتها ، وهو ما يتوافق علمياً مع خواص مادة النجوم الملتهبة .

ومن المرعب في هذه التحولات الكونية مقارنة كسوف الشمس الذي يحصل لفترة محددة ، وحرص الناس على متابعة الأخبار ورغبة التطلع إلى حالة الكون ، مع تصور مستقبل الأرض وما يحل بها من كوارث ودمار شامل إذا الشمس وحدها لُفت ومُحي ضوءها وانكمشت ألسنة لهيبها وتحولت إلى حالت البرودة . قال – سبحانه –: ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾[2]. فأي تصور وأي ذهول يأخذ العقل البشري وأية شدائد تعتري الكون في حالة ذهاب ضوء المليارات من النجوم وانطفاء شعلتها .

وأخيراً نذكر باختصار ذلك الكون التام المحكم ، وعدم وجود فطور في السماء ، لأن وجود الشقوق فيها يجعل

---

(١) سورة التكوير: ٢.

(٢) سورة التكوير: ١.

القوى تتحرك باتجاه نقاط الضعف والتي تقود إلى تدمير النظام الكوني . قال – تعالى –: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾[1]. أي ما لها من شقوق . وإن نفي وجود فطور في السماء قد أكد وكرر مرة أخرى في قوله – عز وجل –: ﴿ **فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ** ﴾[2].

أما حال السماء يوم القيامة ، فقد ذكرت بكلمات هادفة ومتقاربة في المعنى تنفي ورودها بالصدفة لتدل على انفطار السماء وما يصاحبه من مشاهد عنيفة . يبين ذلك قوله – تعالى –: ﴿ **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** ﴾[3].

وقوله: ﴿ **وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾[4].

وقوله: ﴿ **وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ** ﴾[5].

وقوله: ﴿ **إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ** ﴾[6].

---

(١) سورة ق: ٦.

(٢) سورة الملك: ٣.

(٣) سورة الرحمن: ٣٧.

(٤) سورة الحاقة: ١٦.

(٥) سورة المرسلات: ٩.

(٦) سورة الانفطار: ١.

وقوله: ﴿ **إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ** ﴾[1].

وفي الختام يتبين مدى إعجاز الكلمة الواحدة في القرآن الكريم ، وما تعنيه من دلالات علمية دقيقة لم تكتشف إلا بعد التطور الهائل في مجال العلوم ، وتصنيع المعدات والأجهزة الحديثة الذي شهدته البشرية في الآونة الأخيرة . فسبحان الذي بدأ الخلق بقدرته ، وهو وحده القادر على تغيير أحواله بأمره .

قال – عز وجل –: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾[2].

---

(١) سورة الانشقاق: ١.

(٢) سورة النحل: ٤٠.

الحقيقة الخامسة: لمحات عن مفهوم الدابة في القرآن والسنة

وردت كلمة (**دابة**) أربع عشرة مرة ، وكلمة (**الدواب**) أربع مرات في القرآن الكريم . ونوجز القول المهم في معنى الدابة التي هي في الأصل إسم لكل مخلوق حي متحرك ، وتطلق عموماً على كل ما يمشي على الأرض من إنسان أو حيوان ، ولكن استعماله يكثر في الدواب المركوبة مثل الإبل والبغال والخيل . ونقتطف مما يقوله صاحب مختصر تفسير ابن كثير عن قوله – تعالى –: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ** ﴾[1]. (أي ذرأ فيهما ، أي في السماوات والأرض ﴿ **مِن دَابَّةٍ** ﴾ ، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات) .

وسنسلط الضوء في هذه المقالة على مقتطفات من ثلاثة مواضيع وإعجاز كل منها:

أولها: دواب الأرض

ثانيها: دواب السماوات

---

(١) سورة الشورى: ٢٩.

ثالثها: الدواب الخارقة لقوانين الكون

ومن هذه المقدمة الموجزة نأخذ مقتطفات من علوم دواب الأرض مبتدئين بقوله – عز وجل –: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[1]. ويلاحظ أن الله – تعالى – يذكر كل الدواب ولا يميز أحداً منها في مجال الرزق ، ونضرب مثلاً على ذلك من الثدييات ومن الذي هدى صغارها الضعيفة أن تمتص ذلك الثدي الذي امتلأ لبناً من رزق الله – عز وجل – بل إن بعضها مثل القطط والكلاب تولد مغمضة العينين .

ثم يذكر القرآن الكريم سيطرته – جل وعلا – على نواصي هذه الدواب وبدون تمييز فيما بينها فقال – سبحانه –: ﴿ **مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[2].

وموضع الناصية عند الإنسان هو أعلى الجبهة . قال – تعالى –: ﴿ **كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ* نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ**

---

(١) سورة هود: ٦.

(٢) سورة هود: ٥٦.

خَاطِئَةٍ ﴾[1]. جاء في كتاب الإعجاز العلمي في الناصية: (إن القشرة الأمامية الجبهية ، وهي تمثل الجزء الأكبر من الفص الجبهي للمخ والتي تقع مباشرة خلف الجبهة أي أنها تختفي في عمق الناصية ، هي الموجهة لبعض تصرفات الإنسان التي تنم عن شخصيته مثل الصدق والكذب والخطأ والصواب ... إلخ ، أي أنها هي السبب في حالة التصرفات الخاطئة عند الإنسان) . وتتجلى الحقيقة الكبرى في نهاية هذه السورة المهمة الموجهة إلى أمة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ أي أفرغ الذنوب الموجودة في الناصية بالسجود لله – تعالى – واقترب منه بالإضافة للحكم الأخرى، وقد أكد هذه الحقيقة المدهشة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بقوله في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) .

وأما الناصية عند الدواب من الحيوانات فقد أجمع المفسرون على أنها خاضعة لسلطان الله – عز وجل – يصرفها على ما يريد بها ، وقد أثبت علمياً أن في الجهاز

---

(١) سورة العلق: ١٥-١٦.

العصبي لدواب الحيوان نظاماً عصبياً عجيباً هو قاعدة السلوك لها ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ يعني أنه على الحق في ملكه لا يفوته ظالم من هذه الدواب ، وقد تحصل مظالم كثيرة في عالم الدواب منها ما قاله سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الذي أخرجه مسلم في البر: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) . أي يقتص للشاة التي لا قرن لها من التي لها قرن ، أي قصاص مقابلة لا قصاص تكليف، ثم ترد تراباً لذلك يقول الكافر: ﴿ **يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً** ﴾[1].

ولقد كان القرآن الكريم أول كتاب ينبئ البشرية بوجود أمم مثلنا في عالم الحيوان وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾[2]. أي كل الأحياء من الحيوانات الدابة هي أقوام مثلنا لها نظام ولغات ووسائل تعينها على البقاء

---

(١) سورة النبأ: ٤٠.

(٢) سورة الأنعام: ٣٨.

وغرائز ربانية معجزة ولها أجهزة عصبية مدهشة غاية في الدقة تتحكم في السلوك الحيواني لها . ولكن القرآن الكريم بدقته المعهودة ميز الطيور التي تطير بجناحيها (وهي من الدواب أيضاً) عن عموم الدواب بل ميزها أيضاً عن الطيور الدابة الأخرى مثل الدجاج لسببين مهمين: وذلك لحياة هذه الطيور المتميزة بطيرانها الجميل وهذه الحركات الاستعراضية لجمال التحليق والطيران ببسط الجناحين وضمهما وبدون تصادم فيما بينها . قال – جل وعلا –: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾[1]. والسبب الثاني هو تميز أكثرية هذه الطيور وعلى العموم بغريزة زواج الذكر منها بأنثى خاصة به ، وعدم وجود تجاوز على نقاوة وطهارة النسل والحياة الزوجية النظيفة بين هذه الطيور ، وإن أفراخها في العموم تحتاج إلى رعاية الأبوين والله أعلم.

وقد أكد القرآن الكريم أيضاً في سورة النمل حقائق مدهشة عندما حذرت نملة قومها آمرة إياهم أن يدخلوا مساكنهم خشية أن يطأهم النبي سليمان – عليه السلام –

---

(١) سورة الملك: ١٩.

وجنوده فيقضوا عليهم دون أن يشعروا . قال – عز وجل –: ﴿ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾[1]. وقد أكد العلم تخاطب النمل عن طريق قرني الاستشعار .

وذكر أيضاً في سورة النمل ذلك الحوار العجيب بين النبي سليمان – عليه السلام – الذي علمه الله – تعالى – منطق الطير والهدهد بغيرته على قومه . قال – سبحانه – عن الهدهد: ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ**

---

(١) سورة النمل: ١٨-١٩.

عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[1]. وقد أكد العلم لغة التخاطب العجيبة بين هذه المخلوقات وأن للطير منطقاً مدهشاً .

أما عن حشرة الأرضة الصغيرة بحجمها والكبيرة بأضرارها فقد قال – تعالى –: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[2]. أي عندما أكلت حشرة الأرضة عصا النبي سليمان – عليه السلام – التي كان متوكئاً عليها بعد وفاته وبقي كذلك ، والجن تعمل الأعمال الشاقة ، ولا تعلم بموته وتحسبه حياً يراقب حركاتها حتى سقط على الأرض فعلموا موته . وفي هذه موعظة عظيمة للبشرية بعدم اللجوء للسحر والجن وهم محجوبون عن الغيب القريب ، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد .

وحشرة الأرضة سخرها الله – عز وجل – لمذلة قريش، وذلك عندما أكلت كل الصحيفة التي تطالب بحصار المسلمين وأبقت فقط (باسمك اللهم) . ولقد كانت الدابة

---

(١) سورة النمل: ٢٢-٢٤.

(٢) سورة سبأ: ١٤.

التي هاجر عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة المنورة وهي الناقة المسخرة والمأمورة من الله – عز وجل – لتحديد أول موقع لبناء مسجد في الإسلام .

كذلك ميز الله – عز وجل – بعض مخلوقاته وذلك لقوله: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾[1]، يقول صاحب تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (وتنكير ﴿ **مَّاء** ﴾ مؤذن أن كل دابة مخلوقة من ماء مختص بها وهو النطفة) . ومن المعلوم أن الماء هو أصل الحياة ، وعموماً قوام حياة كل المخلوقات وإذا انعدم الماء من أي جسم حي انعدمت الحياة. هذا في مجال عموم الآية إلا أن وجه الإعجاز وخصوصيته يتكشف لنا في تفسير كلمة ﴿ **مَّاء** ﴾ هنا بالسائل المنوي قياساً إلى قوله – تعالى –: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ** ﴾[2]. فإن معناها ينحصر في أن الدواب التي تمشي على الأرض مثل

---

(١) سورة النور: ٤٥.

(٢) سورة الطارق: ٥-٦.

الزواحف والبشر والطيور والحيوانات ذات الأربعة أرجل ، إنما تتناسل بواسطة تلقيحها بالسائل المنوي (أي بالتكاثر الجنسي) وهذه عموماً حقائق علمية . وقد استبعدت الآية عموم الحشرات البالغة التي لها ستة أرجل ، وذلك لأن هناك بعض الحشرات تشذ عن هذه القاعدة ، مثل ذكور النحل وقسم من الحشرات القشرية ومعظم حشرات المن التي تولد من بيض غير ملقح. وقد تحاشت الآية أيضاً ذكر الحيوانات التي لها ثمانية أرجل وهي عموم العنكبوتيات ، وتفادت أيضاً الحيوانات المفصلية عديدة الأرجل ، وذلك لأن قسماً منها أيضاً يتكاثر عذرياً . وقد تفادت الآية أيضاً الكائنات السابحة في الهواء لأن هناك عدداً هائلاً من الميكروبات وهي عبارة عن كائنات حية دقيقة والشائع سباحتها في الهواء تتكاثر عموماً بطريقة الانقسام . وقد استبعدت الآية أيضاً عموم دواب البحر لأن قسماً من الحيوانات البحرية تتكاثر لا جنسياً مثل الحيوانات المرجانية وحيوان الاسفنج أو بعض الديدان البحرية . فانظر إلى هذه الدقة التي تأخذ بالألباب وما تدل عليه الآية الكريمة التي حددت تلك الحيوانات تحديداً يدل على الإحاطة التامة بأحوال الكائنات

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1].

وميز الله – تعالى – الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز ، وهي من الدواب أيضاً بسبب ألبانها النافعة للناس بدليل قوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾[2].

ولقد كان نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أول من ذكر وجود أمم أمثالنا في عالم الحيوان ، حيث قال عن أمم النمل في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن هذه الدابة: (أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أفأن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح) . وقال عليه الصلاة والسلام عن أمم الكلاب في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها) . وتفسير هذا الحديث الشريف ورد فيما رواه مسلم في صحيحه أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال: (من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أو

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) سورة النحل: ٦٦.

زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط) . ويتضح أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أباح اقتناء الكلاب للحاجات المذكورة إلى غير ذلك من الاستعمالات النافعة مثل اقتفاء آثار المجرمين وأمر عليه الصلاة والسلام كما روي في صحيح البخاري بقتل الكلب العقور فقال: (خمس من الدواب من قتلهن وهو محرم فلا جناح عليه العقرب والفأرة والكلب العقور والغراب والحدأة) . وتتجلى الحكمة واضحة في ضرورة قتل الكلاب السائبة التي تؤذي المارة وخاصة إذا كانت مسعورة .

أما الموضوع الثاني الذي سنناقشه في هذه المقالة والمتعلق بدواب السماوات مستندين إلى قوله - تعالى -: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ** ﴾[1]. ويلاحظ مدى إعجاز القرآن الكريم واحتضانه لعلماء الفضاء وكثير من الناس الذين استهوتهم فكرة غزو الفضاء ، حتى إن قسماً من هؤلاء العلماء يطلقون على الكائنات التي يتوقعون مشاهدتها في الكواكب بمخلوقات الفضاء ، إلا أن القرآن الكريم يضع أسساً علمية رصينة

---

(١) سورة الشورى: ٢٩.

وقائمة على سلامة الإنسان بدعوة علماء الفضاء إلى التفكر بقوله – تعالى –: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** ﴾[1].

ولنتأمل الموضوع جيداً حيث لا يزال علماء الفلك يجهلون بعضاً من خصائص القمر القريب منا والذي تستغرق الرحلة إليه أقل من يومين بالمركبة الفضائية ، ويجهلون قسماً من خصائص كوكب المريخ والرحلة أليه تستغرق حوالي تسعة أشهر ، بالإضافة إلى المشاكل الكثيرة التي تواجهها مراكب الفضاء في رحلتها ، منها صعوبة توفير الوقود اللازم للمركبة ، وتوفير الأوكسجين وطعام وشراب رواد الفضاء ، ومشاكل التخلص من فضلاتهم ، بالإضافة إلى مشاكل الجسم الصحية عندهم الناتجة من انعدام الوزن ، إضافة لما تواجهه المركبة الفضائية خارج الغلاف الجوي من الشهب المنطلقة كالقذائف ، والتي ينبغي الوقاية منها وإلا مزقت جسم المركبة وروادها ، بالإضافة إلى أحزمة فان ألن الخطرة والتي تعرض المركبة لخطر

---

(١) سورة الرحمن: ٣٣.

السقوط عندما تخترقها . أما المشاكل الأخرى فتتجسد في إيجاد الجو الملائم على ظهر الكوكب من الأوكسجين والماء اللازمة لحياة الدواب والجاذبية الاعتيادية والغلاف الجوي المناسب ، لذلك يعزل رواد الفضاء داخل مركبات محكمة الإغلاق يعيشون فيها تحت ضغوط جوية مناسبة ودرجات من الحرارة والرطوبة ملائمة ، وبالرغم من هذه الاحتياطات فإن قسماً من هذه المركبات كانت أحياناً مقبرة لروادها .

إن هذه المشاكل التي ذكرناها تخص الرحلات إلى الكواكب القريبة منا ، لذلك فمن المستحيل الوصول إلى حدود أقرب نجم منا ، والذي تحتاج الرحلة إليه إلى مئات الألوف من السنين الاعتيادية من طيران متواصل بالمركبة الفضائية ، بل لو سارت المركبة بسرعة الضوء لاحتاجت إلى حوالي أربع سنين وثلث . ومن النجوم ما يبقى الضوء مسافراً إليه في مدة ملايين السنين . لذلك يدعو القرآن الكريم الناس في كثير من آياته إلى التفكر في خلق السماوات وما فيها من ملائكة أو مما لا نعلم من مخلوقات .

قال – سبحانه –: ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾[1]. بسبب استحالة الوصول إلى حدود أقرب نجم منا ، فكيف بالنجوم البعيدة والسماوات العلى ؟

وأما الموضوع الثالث وهو الدواب الخارقة لقوانين الكون ، ومنها المعجزة المهمة التي تتجلى واضحة باستحالة المرور بين مواقع النجوم بسلطان العلم ، وأن معراج النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى السماء السابعة كان بسلطان الله – عز وجل – بالبراق ، وهي دابة ربانية لونها أبيض تسير بسرعة خارقة (عندها يكون الزمن قليلاً أي علمياً مقارباً للصفر) وعند خروج هذه الدابة الربانية من الغلاف الجوي ، ثم سيرها بين النجوم الكبيرة الهائلة والصغيرة مما ينتج عنه انجذاب الدابة الربانية إلى النجوم الكبيرة ، بالإضافة لتلافيها الشهب المنطلقة كالقذائف أيضاً ليحتاج إلى السير بخط متعرج ، لذلك سميت الرحلة بالعروج . ومن اللطيف أن هذه التسمية جاءت منسجمة وملائمة لصفات عموم الدواب التي تمشي على الأرض ، فإن لها القابلية على تغيير خط سيرها والانحراف عن

---

(١) سورة النحل: ٨.

مناطق الخطر التي تواجهها مثل النار أو غيرها . وكلمة البراق تشير إلى الخطف السريع والبرق هو الضوء الأبيض القوي اللامع المنبعث في السماء في زمن قليل جراء تفريغ كهربائي ما بين السحابتين . والدابة تشير إلى المركبة الفضائية الحنونة من صنع الله – عز وجل – والمذللة لحبيب رب العالمين وملائكته الكرام لتوفير الحماية الربانية لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – مخترق السماوات الوحيد برحلته المتفردة بين البشر والمعجزة إلى يوم القيامة. قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في حديث يخص المعراج نقتطف منه: (واتيت بدابة أبيض دون البغل وفوق الحمار البراق فانطلقت مع جبريل حتى أتينا السماء الدنيا قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قيل محمد قيل وقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحبا به ولنعم المجئ جاء ... حتى فأتينا السماء السابعة ... الحديث) . [صحيح البخاري] .

ومن الملفت للنظر أن القرآن الكريم بدقته المعهودة ذكر في سورة فاطر لفتات كونية عجيبة تهز القلب هزاً ، منها تعدد الدواب والأنعام واختلاف ألوانها وذكر معهم حكمته البالغة ، أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به .

فقال – جل وعلا –: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾(١).

وفي الختام نلاحظ أن المواضيع العلمية الرائعة التي تخص (**الدابة**) في القرآن والسنة ، إضافة إلى المشاهد في سورة النمل ، وهي مشاهد الحوار والأحاديث بين طائفة الحشرات والطير والجن والنبي سليمان – عليه السلام – جاء ذكر الخارقة العجيبة ، وهي (**الدابة**) وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وما بينته هذه المقالة ومحققاً لتناسق التصوير في القرآن وضرورة الإيمان والتصديق في أشراط الساعة ومشاهدها الرهيبة ومنها ظهور الدابة التي تكلم الناس ، ويرسم مشهداً لعذاب المكذبين بآيات الله – عز وجل – . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ** ﴾(٢).

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) سورة النمل: ٨٢.

الحقيقة السادسة: القرآن والتمايز الخلقي في حواس الإنسان

لحواس الإنسان الخمسة المعلومة ، وهي السمع والبصر واللمس والذوق والشم أكبر الأثر في حياته ، وتساهم حاستي السمع والبصر بنسبة أكثر من تسعين بالمئة من التعلم . ويتميز كل إنسان في هذه الدنيا بحواس خاصة به تختلف عن كل الناس ، لحكمة بالغة وقدرة عظيمة أرادها الله - عز وجل - لتنظيم أمور الدنيا والآخرة . قال - تعالى -: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾[1].

وسنقوم بأخذ نماذج من آيات القرآن الكريم ، وتسليط الضوء باختصار على كل حاسة وتميزها في جسم الإنسان مبتدئين بحاسة السمع . قال - سبحانه -: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[2]. تعتبر الأذن من أدق أعضاء الإنسان وأكثرها تعقيداً ، وإن التفاهم مع الأصم والأطرش صعب لأن جهاز السمع مرتبط

---

(١) سورة الذاريات: ٢١.

(٢) سورة المؤمنون: ٧٨.

بالنطق. قال – تعالى –: ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾[1]. أقسم الله – سبحانه – بذاته العلية ، وضرب مثلاً على صدق ما توعدون به من الرزق والبعث والنشور وهو حق كائن لا محالة ، مثل الحقيقة العجيبة والخارقة المذهلة التي بين أيديهم المتمثلة بنطق اللسان . ومن الحقائق العلمية أن الله – جل وعلا – ميز الأذن الخارجية التي تشمل الصيوان (وهو الجزء الظاهر من الأذن على هيئة القمع ووظيفته تجميع الأصوات) وقناة الأذن السمعية الخارجية (وهي الجزء الذي يمتد إلى غشاء الطبلة) وجعلها على شكل وحجم وطيات تختلف من إنسان إلى آخر. ومن الممكن أن تكون هوية لتعريف الشخص ، وكذلك جعل تركيباً خاصاً للموجات الصوتية لكل إنسان وأعطى الأذن البشرية قدرة على تمييز هذه الأصوات لتنظيم أمور الحياة . وتوجد أيضاً أجهزة متخصصة للتحقق من الصوت والتعرف

---

(١) سورة الذاريات: ٢٢-٢٣.

على الشخص . ولقد زكى الله – تعالى – نطق نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – فقال: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** ﴾[1].

أما بالنسبة لحاسة البصر . قال – عز وجل –: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[2]. هذه الكلمات الهادفة تبين المنهج العلمي الذي يريده الله – تعالى – للإنسان ، حيث لا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية إلا أن يتثبت من صحتها على وجه اليقين ، وذلك لأن حاستي السمع والبصر المتميزة عند كل إنسان ستكون مسؤولة أمام واهبها . ومن الحقائق العلمية إمكانية التعرف على الأشخاص من قزحية العين (الجزء الملون منها) بواسطة جهاز يسمى الكاشف القزحي ، حيث قامت شركة آيسكان بصنع كاميرات متخصصة توجه للعين للتأكد من هويتهم . ولأهمية الأموال في حياة الناس بادرت قسم من المصارف العالمية بتطبيق نظام التعرف على الشخصية من قزحية العين ، وكذلك تم تطبيقه في بعض المطارات العالمية.

---

(١) سورة النجم: ٣.

(٢) سورة الإسراء: ٣٦.

ولإعجاز خلق العينين بهذه العظمة التي يبصر بهما الإنسان. قال – جل جلاله –: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ** ﴾[1]. ولأهمية حاسة البصر قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الحديث القدسي الصحيح الذي يرويه عن ربه: (إن الله تعالى قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة يريد عينيه) [صحيح البخاري] . ولقد زكى الله – سبحانه – بصر النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وما اختص به من تكريم عندما رأى الآيات العظام وعجائب ملكوت الله – عز وجل – في ليلة المعراج فقال: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى** ﴾[2].

ولأهمية حاستي السمع والبصر قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الحديث القدسي الصحيح الذي يرويه عن ربه ونقتطف منه: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) [صحيح البخاري] .

---

(١) سورة البلد: ٨.

(٢) سورة النجم: ١٧-١٨.

ومن الجدير بالذكر أن الآيات الكريمة التي وردت فيها الحواس المهمة تتطابق مع العلم الحديث وما بينته الحقائق العلمية بشأن ترتيب عمل هذه الحواس بعد ولادة الجنين أي الممارسة الوظيفية مثل قوله – تعالى –: ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1]. ونقتطف بتصرف مختصر مما قاله السيد محمد عبد الحميد في كتابه الإسلام والطب: (وأول الحواس التي يستعملها الطفل هي حاسة السمع إذ إنها تبدأ مبكرة بعد الولادة ، ثم تتبعها حاسة الإبصار ولا تتم الحركة كاملة في أجهزة العين إلا بعد تسعة أشهر حيث يمكن تجميع الألوان الأساسية وكذلك الأشكال ، ثم يبدأ الإدراك والقدرة على الفهم وهو المقصود بالفؤاد) .

ونتواصل في بيان حاسة اللمس وإعجازها مبتدئين بقوله – تعالى –: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾[2]. تبين الحقائق العلمية أن

---

(١) سورة النحل: ٧٨.

(٢) سورة النساء: ٥٦.

الجلد هو مركز الإحساس الرئيسي بالألم والراحة والحرارة والبرودة ، ويتكون من طبقتين العليا تدعى البشرة وهي رقيقة جداً وكثيراً ما تتقشر على هيئة قطع من الجلد الميت ، والطبقة السفلى يطلق عليها اسم الأدمة وتحتوي على الأوعية الدموية والأعصاب ، وأن نهاية هذه الأعصاب في الجلد هي التي تعطينا حاسة اللمس. لذلك فإن الله – جل وعلا – يهدد الكافرين بأن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب يجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع .

ومن المعلوم أن لكل جلد إنساني ، إشعاعاً حرارياً ، وكهربائية مستقرة ، تختلف درجتها من إنسان إلى آخر . وقد تم إجراء تجارب بواسطة أجهزة متخصصة تتعامل مع هذه الظواهر وتعطي مؤشرات للتعرف مثلاً على الحالة النفسية ، وصدق أطباء النفس حين يقولون إن الجلد هو مرآة نفسية الإنسان . ومن الحقائق العلمية أيضاً تميز بصمة جلد أصابع الإنسان لأنها تعطي مؤشرات جيدة للتعرف على هويته وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ**

عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[1] والبنان هو طرف الإصبع .

ويضرب القرآن الكريم مثلاً عن حاسة الذوق وذلك لقوله - سبحانه -: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾[2].

ومن المعلوم أن الله - جل وعلا - قال لآدم أسكن مع زوجك حواء الجنة ، وكلا من كل أنواع ثمارها إلا ثمار شجرة واحدة وذلك لقوله: ﴿ **فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾[3]. ولكن الشيطان خدعهما فذاقا من ثمر هذه الشجرة ثم أكلا منها ، عندها بدأت قصة البشرية كما أرادها الله - عز وجل - بامتحان الإنسان وابتلائه في حياته في هذه الأرض بقوله: ﴿ **قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾[4].

---

(١) سورة القيامة: ٣-٤.

(٢) سورة الأعراف: ٢٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٩.

(٤) سورة الأعراف: ٢٤.

وإن من وظائف اللسان تمييزه بين الحلو والمر والحامض والمالح ومختلف درجات تركيزها بواسطة جسيمات الذوق ، ويختلف الأشخاص في تذوق طعم المواد .

أما في مجال حاسة الشم التي بواسطتها يتم إدراك رائحة الأشياء ، فقد ذكر القرآن الكريم حقيقة علمية رائعة وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ* وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾[1]. أي أعطى النبي يوسف – عليه السلام – قميصه لأخوته ، وطلب منهم إلقاءه على وجه أبيه يعقوب – عليه السلام – ولما فصلت القافلة عند مفرق الطرق في أرض كنعان ، واتجهت إلى محلة يعقوب – عليه السلام – ومعها قميص يوسف – عليه السلام – حصلت الخارقة ، حيث قال: إني أشم رائحة يوسف للدلالة على تميزها ، ومن الدلالة العلمية على تفرد الإنسان برائحة خاصة ، هو تدريب الكلاب على شم قطعة من ثياب أحد اللصوص فإنه يميز السارق من بين كثير من الناس .

---

(١) سورة يوسف: ٩٣-٩٤.

وفي الختام يتبين أن كل إنسان هو نموذج خاص وطبعة فريدة لا تتكرر على مدار الدهور ، فهو متميز في حواسه بصورة عجيبة ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً ، ولو تدبر الإنسان فقط فيما زود به من الحواس الفريدة لوجد الله – تعالى – ولاهتدى إليه بهذه الحواس الخارقة الدالة على أنه الخالق الوحيد . قال – عز وجل –: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾[1]. يقول صاحب تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (قال الراغب: اختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات ، واختلاف النغمات ، فإن لكل لسان نغمة يميزها السمع ، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر ﴿ **وَأَلْوَانِكُمْ** ﴾ بالبياض ، والسواد ، والحمرة وغيرها . قال الراغب: في الآية إشارة إلى أن أنواع الألوان من اختلاف الصور التي يختص كل إنسان بهيئة غير هيئة صاحبه ، مع كثرة عددهم ، وذلك تنبيه على سعة قدرته ، يعني أن اختلاف الألوان إشارة إلى تخطيطات الأعضاء وهيآتها) .

---

(١) سورة الروم: ٢٢.

نعم إن الأجهزة المتطورة تميز الإنسان من بين جميع البشر في ثوان قليلة ، إلا أن المشكلة الشعورية عند الكفار هي صعوبة تصورهم ما يجري في يوم القيامة ، لذلك فإن الله – جل وعلا – كشف سلطانه عليهم في الآخرة ، وذلك بشهادة حواسهم المتميزة لحكمة بالغة وهي ﴿ **سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ** ﴾ ولكن الحقيقة العلمية المدهشة ، تبين أن هؤلاء الكفار ينادون جلودهم فقط ﴿ **لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا** ﴾ ، وذلك لأن أكثرية الألم والعذاب في هذه الجلود بالإضافة إلى وجود مؤشرات أولية لمنطقها في الدنيا ، فأين الصعوبة لأن تنطق هذه الجلود والحواس الأخرى بل كل شئ في الآخرة . أليس الذي خلق هذه الحواس بهذا التفرد المذهل في الدنيا بقادر على أن يعيدها في الآخرة ؟ بلى وهو الخلاق القدير . قال – تعالى –: ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة فصلت: ١٩-٢١.

الحقيقة السابعة: لمحات عن مفهوم الوسط في القرآن والسنة

وردت كلمة وسطاً أو ما يشابهها في المعنى كثيراً في القرآن والسنة ، وتعني ما بين الطرفين وليست شرطاً أن تكون في المنتصف ، ولها معاني متعددة منها كما قيل: (خير الأمور أوساطها) وكل خصلة وسطية محمودة فلها طرفان مذمومان ، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والليونة وسط بين القساوة والرخاوة ، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم . وأوسط الشئ أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه ، ويعني الوسط أيضاً الموقع . وكذلك معنى أوسطهم نسباً أي خيرهم وأرفعهم . والوسط بين الروح والجسد أي الجمع بينهما لتكوين النفس .

إن الوسطية موضوع واسع جداً ولكننا سنقوم بأخذ لمحات مختصرة عن أربعة مواضيع مهمة:

أولها: وسطية موقع مكة المكرمة

قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – عن فضل مكة المكرمة على سائر بقاع الأرض: (والله إنك لخير أرض

الله وأحب أرض الله إلى الله - عز وجل - و لـــولا أنـــي أخرجت منك ما خرجت) [أخرجه أحمد] . ذكـــر الـــسيد محمد كامل عبد الصمد في كتابه الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية: (إن العالم المصري الدكتور حسين كمـــال الدين الذي اكتشف حقيقة كون مكة المكرمـــة هـــي مركـــز اليابسة في العالم وهي قلب الأرض بتقدير الله - عز وجـــل - إن هدفه كان إجراء بحث ليعد وسيلة تساعد كل شـــخص في أي مكان من العالم على معرفة وتحديد مكـــان القبلـــة ، لأنها مشكلة كل مسلم عندما يكون في مكان ليس فيه مساجد تحدد مكان القبلة ، لذلك فكر في عمل خريطة جديدة للكـــرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليهـــا ، وبعـــد أن وضـــع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطـــة بمساعدة الحاسوب الإلكتروني ورسم عليها القارات الخمس ظهر له فجأة اكتشاف مبارك وهو توسط مكة لليابسة علـــى الأرض) .

قال - تعالى -: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾[1]. أي تنذر أهل مكة المكرمة ببيت

---

(١) سورة الشورى: ٧.

الله العتيق ومن حولها من الأرض لأمر يعلمه و يريده الله – سبحانه –: ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾[1].

وذكر الدكتور زغلول النجار في محاضرة له عن آيات الله في الكون: (إن زاوية الانحراف المغناطيسي – وهي الزاوية بين القطب المغناطيسي للأرض الذي تحدده البوصلة والقطب الجغرافي الذي يحدده اتجاه شروق الشمس وغروبها – يبلغ عند خط غرينج أكثر من [٢٣] درجة بينما هذا الانحراف عند خط طول مكة صفر) . قال – عز وجل –: ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾[2].

وذكر السيد محمد كامل عبد الصمد في كتابه الإعجاز العلمي في الإسلام والسنة النبوية: (إن موقع مكة يمثل مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي) . ومن الحقائق العلمية الثابتة تأثر عموم الطيور التي تطير بجناحيها بأحد العوامل المهمة وهو المجال المغناطيسي ، ويتجلى ذلك واضحاً في موضوع هجرة الطيور ، وكذلك تأثر الطيور الزواجل عند تماسها مع الموجات الكهرومغناطيسية التي

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٢) سورة الرعد: ٨.

يبثها الرادار ، لذلك والله - تعالى - أعلم فالطيور موجودة في الحرم المكي إلا أنها نادراً ما تقف على الكعبة .

ويتوفر في المنطقة الوسط عند البيت الحرام ماء مبارك هو ماء زمزم ، فقد أثبتت الدراسات التي قام بها مركز أبحاث الحج أنه طاهر ونقي وخال من الجراثيم وأن بقاء ضخ المياه من هذه المنطقة المباركة لها خصوصيته ، حيث أنك تجده دائماً وهو يفيض بالبركة منذ فترة طويلة ولا تنفد مياهه بالرغم من كثرة الضخ منه خاصة في وقت الحج . ومن المعلوم أن معظم الآبار الأخرى المحيطة بمدينة مكة جافة وأن الآبار في تلك المناطق لها عمر معين ويغور ماؤها وتنتهي .

وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة منها: (ما ذكره البخاري في صحيحه أنه لما شق صدر النبي- صلى الله عليه وسلم - غسل بماء زمزم) . وقال سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -: (ماء زمزم لما شرب له) [أخرجه أحمد] .

وكذلك تتصف المنطقة الوسط وهي مكة المكرمة في موسم الحج ، بوجود أكبر مؤتمر عالمي متميز للمسلمين

يمثل شعوب الأرض ، وبتوفر نماذج من صنوف الأطعمة والألبسة التي تجلب مع الحجاج وهذه العينات من الأطعمة والألبسة تزداد بازدياد عدد المسلمين في العالم لتمثل أكثرية بقاع الأرض ، ولتبين تحقق وعد الله – عز وجل – وإلى يوم القيامة لقوله – جل وعلا –: ﴿ **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾(١).

وعن بيت الله الحرام في مكة المكرمة وفضله وعلاماته الواضحة التي تدل على شرفه منها مقام إبراهيم ودلالات أخرى كثيرة . قال – جل جلاله –: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾(٢).

ثانيها: الوسطية في أمور العبادة

وهذه الوسطية كانت واضحة عند سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ، فقد بلغ الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ثلاثة رهط أراد أحدهم أن يصلي الليل أبداً ، وأراد

---

(١) سورة القصص: ٥٧.

(٢) سورة آل عمران: ٩٦-٩٧.

آخر أن يصوم الدهر ولا يفطر ، وعزم آخر على أن يعتزل النساء ولا يتزوج . فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم و أفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) [صحيح البخاري] . ومن الملفت للنظر أن حكمة صيام الأيام البيض وسط الشهر القمري التي صامها النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – حيث أخرج البخاري أن سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – قال في باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة . عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: (أوصاني خليلي– صلى الله عليه وسلم – بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى وأن أوتر قبل أن أنام) . وسميت بالبيض لأن لياليها بيضاء من شدة ضوء القمر عند اكتماله ، وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة أبحاث علمية مفادها أن القمر عندما يكون بدراً يزداد التهيج العصبي والتوتر النفسي . ويقول عالم النفس الدكتور ليبر: (إن هناك علاقة قوية بين العدوان البشري والدورة القمرية وخاصة بينه وبين مدمني الكحول والميالين إلى الحوادث وذوي النزعات الإجرامية).

ثالثها: الوسط ما بين الجسد والروح للنفس البشرية

وفي مجال الوسطية والجمع بين الروح والجسد بحيث لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي بل الجمع بينهما بوسطية ، والروح والجسد هما العنصران اللذان تتكون منهما النفس البشرية إذ قال الله – تعالى – بشأنهما: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[1]. إن تغذية الجسد تتعرض إلى ثلاث حالات ، حيث أن التغذية الجيدة للجسم تفيده ، والتغذية الفاسدة تضره، أما بقاء الجسد بدون أكل وشرب فانه يؤدي به إلى الموت . لذلك أمر الله – سبحانه – المسلمين أن يكونوا وسطاً في موضوع التغذية فقال: ﴿ **وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾[2].

وكذلك فإن الجزء الروحي يتعرض إلى ثلاث حالات ، فتجوع الروح طلباً للاعتقاد وقد بلغت البشرية عن طريق الأنبياء عليهم السلام بعبادة الله – عز وجل – وحده لا

---

(١) سورة الحجر: ٢٨-٢٩.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

شريك له وأن أفضل تغذية مفيدة لهذه الروح هو ذكر الله – جل جلاله – وعبادته . قال – تعالى –: ﴿ **أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾(١). إن فطرة الإسلام وإقرار الناس بالربوبية متمثلة في قوله – جل جلاله–: ﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾(٢). وعن الفطرة أيضاً قال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء) [أخرجه البخاري] . أي كل مولود من بني آدم يولد على فطرة الإسلام وأخذ الله – تعالى – عليهم العهد حيث قال: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى** ﴾(٣). قال القرطبي: (إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق . كمثل البهيمة تلد الولد كامل الخلقة فلو ترك كذلك كان بريئاً من العيب لكنهم تصرفوا فيه بقطع إذنه مثلاً فخرج عن الأصل) .

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٢.

أما التغذية الفاسدة للروح فهو إشراك مخلوقات أخرى مع الله – عز وجل – في العبادة وتجاوز الحدود و العياذ بالله ، وهناك أمثلة كثيرة على هذا الموضوع ويأخذك العجب عندما ترى أو تسمع قسم من أذكياء البشر وهم يخشعون لبعض الحيوانات أو الحجر ويغذون الروح بهذه التغذية الفاسدة وممارسة غريزة العبادة التي خلقها الله – تعالى – للتوحيد بهذا التجاوز المذموم ويعتقدون أن عبادتهم هذه صحيحة . قال – سبحانه –: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** ﴾[1]. و يبقى القلب في هذه الحالة متردداً غير مستقر بسبب هذا الإشراك سيما وهو يتلقى نداء الفطرة وموعظة المؤمنين .

أما عدم تغذية الروح كما يحصل عند بعض البشر ، وخاصة في الغرب الذين ينشغلون بالعمل صباحاً و بشرب الخمر مساءً وفي العطل فهو يؤدي بهم إلى الكآبة وأحياناً إلى الانتحار . وقد ثبت علمياً أن الروحانيات والإيمان تقلل

---

(١) سورة فاطر: ٨.

الاكتئاب . قال – عز وجل –: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً** ﴾[1].

رابعها: وسطية هذه الأمة في مجال دعوة البشرية إلى الله – تعالى –

تتجلى حكمة الله – جل جلاله – بجعله أمة الإسلام هي الأمة الوسط التي تجمع كل الخصال الحميدة ، في التصور والاعتقاد والاعتدال والتفكير والشعور والعلاقات وجعل مركزها في سرة الأرض وأوسط بقاعها ، حيث تؤدي كوكبة من المسلمين الصلاة والطواف حول الكعبة المشرفة بصورة مستمرة على مدار الساعة وإلى يوم القيامة لنشر نور الإسلام ولتقود البشرية إلى الخير فهذه الأمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، وهي شهيدة على الناس يوم القيامة ، حين يشهد عليها رسولها – صلى الله عليه وسلم – وجاءت آية الوسط في القرآن الكريم لتبين هذه الحقائق لقوله – جل وعلا –: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾[2].

---

(١) سورة طه: ١٢٤.

(٢) سورة البقرة: ١٤٣.

ولقد جاءت آية الوسط في القرآن الكريم بين آيات مباركات مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾(١). وقوله: ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ** ﴾(٢). وقد نفذت الأمة توجيه رب العالمين بتميز واضح لوجود خمس صلوات مفروضة على المسلمين في اليوم من غير النوافل ، ففي كل لحظة توجد صلاة في مدن معينة من الكرة الأرضية والذي يعتمد وقت أداءها على موقع الشمس بالنسبة للأرض في موقع هذه المدن . لذلك يؤدي ما يقارب من ربع مليون مسلم الصلاة في كل دقيقة على مدار اليوم باتجاه الكعبة المشرفة ، وهم يذكرون الله – تعالى – ذكراً كبيراً ويقرؤون القرآن الكريم ويذكرون نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – في الأذان والإقامة والتشهد. وبذلك يتبين الحق الذي تم تبليغه للبشرية جمعاء بأمانة ، وأن الحجة للمسلمين على الناس بضرورة اتباع هذه

---

(١) سورة البقرة: ١١٥.

(٢) سورة البقرة: ١٥٠.

الأمة الوسط . قال – عز وجل –: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنـــدَ اللّـــهِ الإِسْلاَمُ ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩.

الحقيقة الثامنة: القرآن وعلم منطق الطير

وردت كلمة (**الطير**) ست عشرة مرة ، وكلمة (**طيرا**) ثلاث مرات ، وكلمة (**طائر**) مرة واحدة في القرآن الكريم ، وذلك لما تتميز به الطير من قدرات مذهلة ومنطق عجيب . ولقد ربى العلماء نماذج منها منذ خروجها من البيضة في المختبرات بعيدة عن الوالدين ، ومع ذلك فعندما تكبر تبدأ ببث نفس الألحان وحركة أعضاء الجسم بإلهام غريزي على وفق النوع الذي تنتمي إليه ، فالبلابل بلابل ، والعصافير عصافير ، وكذلك بقية الأنواع . وفي العموم وجد الباحثون أن لغات الطيور التي تدير بها شؤون حياتها ، هو صوتها وحركة أعضاء أجسامها الغريزية مثل الجناحين والرأس والرقبة والمنقار والأرجل حسب النوع الذي تنتمي إليه . وقد تم إحراز بعض التقدم في محاولة فهم ما يسميه العلماء لغات الطيور ، مثل تسجيل أصوات نماذج منها ثم تحليلها بواسطة أجهزة متخصصة وبتجربة بثها بينهم، فُهم بعض معانيها مثل العراك بين الطيور . ونتواصل في ذكر بعض غرائب الطير ونذكر منها الوقواق وهو طائر مثير للخداع والاستغلال ، لأن الوقاويق لا تبني

أعشاشاً لها وإنما تلتقط أنثاه بيضة من عش طائر آخر فتحطمها ثم تضع بيضتها الوحيدة بين البيضات الباقية في العش ، والأغرب من ذلك أن فرخ الوقواق ما أن يخرج من البيضة حتى يقوم بدحرجة البيض أو الأفراخ الموجودة فيه خارج العش ، وهذا يثير الدهشة لغرابة سلوك الوقاويق ومنطقها العجيب فسبحان الله فإن له حكمة في شؤون خلقه . قال – تعالى –: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾[1]. أي ربنا الذي خلق كل المخلوقات بمواصفات دقيقة وحكمة معينة ثم هدى كل شئ إلى وظيفته التي يسرها له ، ونضرب أمثلة على ذلك من أمم الطير التي تطير بجناحيها: هو حدة بصرها ، وتعليم أفراخها الطيران ، وتعدد أنواع المناقير عندها لأداء أغراض معينة مناسبة لنوع الفصيلة ، والتقاط أنواع منها الحبوب بالنقر حبةً حبةً وإصابتها بدقة بالغة ، وتميز أنواع منها بهجرتها العجيبة ، وإطعام أفراخها حيث تزقهم جميعاً ، وعموماً رميها قشور البيض بعد التفقيس خارج العش لئلا يستدعي بقاؤها أنظار الجوارح ، وعدم استرخاء قبضة أصابع أرجلها من على

---

(١) سورة طه: ٥٠.

الأغصان والقضبان عند راحتها خاصة في الليل ، والسلوك الغريزي المدهش للتفاهم فيما بينها لحماية الأعشاش التي فيها بيضها وأفراخها ، إضافة إلى قيام كثير منها ببناء أعشاش مناسبة لظروفها وبيضها ومواصفات أفراخها . ونكتفي بضرب مثل على ذلك عش طائر السنونو الذي يهيأ الطين ويخلطه بعيدان صغيرة لتقويته وتثبيته في أماكن مناسبة . ومن الملفت للنظر قدرة الحمام الزاجل لإيصال الرسائل إلى مسافات طويلة . وهذه المواضيع جديرة بالدراسة والتحليل .

لقد أوجز القرآن الكريم وسائل التفاهم بين الطير بكلمتين معبرتين وهما منطق الطير . قال – جل جلاله –: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾[1]. يقول صاحب تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (والمنطق قد يُطلق على كل ما يصوّت) . ويقول القرطبي في تفسيره: (والمنطق قد يقع لما يُفهم بغير كلام). أي أن كلمة ﴿ **مَنطِقَ** ﴾ في الآية تعني وسيلة

---

(١) سورة النمل: ١٦.

التفاهم شاملةً الأصوات وحركة أعضاء الأجسام والرموز الغريزية ، وكلمة ﴿ **الطَّيْرِ** ﴾ تعني كل نوع أو فصيلة .

ونذكر نماذج من القرآن الكريم حول كلمة (**الطير**) للدلالة على النوع الذي تنتمي إليه كقوله – تعالى –: ﴿ **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ** ﴾[1]. قال مجاهد: (كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً) .

وقوله: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء** ﴾[2].

وقوله: ﴿ **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ** ﴾[3]. ومن المعلوم أن الأكثرية من الطير تميل للتجمعات كل نوع أو فصيلة على حدة ، ويتجلى ذلك واضحاً في هجرته وفي طيران الحمام التي يربيها الهواة .

وقوله: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾[4]. أي

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٠.

(٢) سورة النحل: ٧٩.

(٣) سورة ص: ١٩.

(٤) سورة الملك: ١٩.

الطيران ببسط الجناحين وضمها وحسب النوع الذي تنتمي إليه الطير .

ويتبين الإعجاز البلاغي والعلمي في ترابط الكلمتين الوثيق ﴿ **مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ لأنه لا يجوز أن يقال منطق الطيور ، وذلك لأن معناها يوحي أن لكل الطيور المتنوعة منطقاً واحداً ، وهذا خلاف الحقيقة وطبيعة الخلق في أمم الطير .

ونتواصل في ذكر بعض خصائص الطير في القرآن الكريم منها أن الله – عز وجل – أورث علم منطق الطير للنبي سليمان – عليه السلام – لأهميته . وميز الله – جل جلاله – الطير بالتسبيح من بين جميع الكائنات فقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾[1]. أي كل من في الكون والطير كل حسب النوع الذي تنتمي إليه قد أرشد وهدي إلى طريقته ومسلكه في تسبيح الله – جل وعلا – ولطالما أحسست بالإيقاع الصوتي الرائع للطير وذلك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ولقد

---

(١) سورة النور: ٤١.

اختار الله – تعالى – الطير من بين جميع الحيوانات وسخر طائفة منها مع جنود النبي سليمان – عليه السلام – في مسيرة مهيبة فيها طوائف من الجن والإنس . قال – سبحانه –: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾[1]. وسخر الله – تعالى – الحيوانات الجارحة لخدمة الإنسان وأقدره على تعليمها ، وإن ما تمسكه الجوارح المدربة على الصيد كالصقر والبازي ومثلها كلاب الصيد هي من ضمن الطيبات . قال – عز وجل –: ﴿ **قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** ﴾[2]. وجعل الله – تعالى – لحم الطير من ضمن طعام الجنة فقال: ﴿ **وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾[3]. وبعث الله – جل جلاله – غراباً علم ابن آدم كيفية دفن الميت فقال: ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ** ﴾[4]. وميز الله – جل وعلا – الهدهد وحده من بين الطير التي كانت تقوم بصحبة النبي سليمان – عليه السلام – وذلك

---

(١) سورة النمل: ١٧.

(٢) سورة المائدة: ٤.

(٣) سورة الواقعة: ٢١.

(٤) سورة المائدة: ٣١.

لمنطقه العجيب، وقيامه بجمع الأخبار عن أمة عظيمة تسكن اليمن وهم يسجدون للشمس . والواضح أن عظم المهمة الاستخبارية للهدهد ليشير إلى أن من شرط المخبر الحذر وأن لا يخبر عن شئ إلا أن يكون متيقناً منه لأن نتائجه في حالة الكذب ستكون وخيمة ، لذلك هدده النبي سليمان – عليه السلام – بالعذاب الشديد أو الذبح أو ليأتينه بحجة واضحة تبين عذره لقوله – سبحانه – على لسان سليمان – عليه السلام –: ﴿ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾[1]. وكان جواب الهدهد كما أخبر الله – جل جلاله – في محكم كتابه: ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾[2]. أي خبر هام وأمر صادق مؤكد . ولكن النبي سليمان – عليه السلام – ولأهمية الموضوع أكد مرة أخرى شكه في إمكانية خداع الهدهد كما جاء في قوله – تعالى –: ﴿ **قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[3]. ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد ليذهب به إلى اليمن ، وهي قصة

---

(١) سورة النمل: ٢١.

(٢) سورة النمل: ٢٢.

(٣) سورة النمل: ٢٧.

معبرة ذكرت في سورة النمل . والمهم في الموضوع أن الهدهد ساهم في دعوة أمة عظيمة للسجود لله الخالق العظيم.

ومن الحقائق العلمية تميز الهدهد في المناطق الباردة بكونه من الطيور المهاجرة ، وإنه على الرغم من جماله الذي لا يمكن أن نخطئ في تشخيصه بسبب تاجه البارز على رأسه إلا أن عشه يتميز برائحة كريهة لعدم إزالة الفضلات من قبل الوالدين ، كما تفرز الفراخ زيتاً ذا رائحة كريهة من غدد خاصة في الذنب عند التفقيس دفاعاً عن أنفسها وحذراً من الأعداء المفترسين ، فإذا ما علمنا أن هذه الرائحة هي للتمويه والخداع لولاها لزاد احتمال أكل الأعداء للفراخ ونكبت الهداهد ، ويتصف الهدهد أيضاً بمنقار طويل ومقوس وهذه الصفة تسبب له صعوبة في ابتلاع الغذاء لذا فهو يقذف ضحيته من الحشرات عالياً في الهواء ثم ينقض عليها بسرعة فتدخل في فمه المفتوح فيبتلعها .

وقد ذكر القرآن الكريم أيضاً وجود أمم في عالم الحيوان وميز الطير التي تطير بجناحيها لأهميتها وكان أول كتاب

ينبئ البشرية بها . قال – عز وجل –: ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ﴾[1].

وفي الختام سخر الله – عز وجل – الطير لمنطقها العجيب وميزها عن جميع الحيوانات في آيتين كريمتين **أولهما:** قوله – تعالى –: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾[2]. وهذه القصة حدثت في عام ميلاد سيد الكائنات نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – حيث سلط الله – سبحانه – جماعات من الطير ترمي أصحاب الفيل بحجارة من سجيل حين حاولوا هدم الكعبة المشرفة فأهلكهم الله – عز وجل – عن آخرهم بهذه الخارقة .

وللدلالة على سهولة تصور الحدث نضرب مثلاً من عجائب الطير ، وهو وجود نوع من النسور يسمى اللمكاي حيث يحمل عظمة ويطير بها في الفضاء إلى ارتفاع عال ثم يرميها على صخرة فتتكسر ثم يهبط ليأكلها .

---

(١) سورة الأنعام: ٣٨.

(٢) سورة الفيل.

وثانيهما: قوله – سبحانه –: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ** ﴾[1]. وهذا وصف رهيب ومثل يهز المشاعر على طريقة القرآن الكريم في التعبير والتصوير وتوضيح المعاني وإبرازها بصورة حسية ، إنه مشهد السقوط للمشركين من ارتفاع شاهق ، وضربات قلوبهم تكاد تزهق أرواحهم من شدة الفزع ، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، وبلمح البصر تمزقهم الجوارح من الطير . وهي صورة هادفة لتقريب المعنى لحال من يشرك بالله – عز وجل – .

---

(١) سورة الحج: ٣١.

الحقيقة التاسعة: المحبة في القرآن والسنة

المحبة هي أساس الإيمان في الإسلام وشرط في استكماله وتمامه . قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم) [رواه مسلم] .

إن موضوع المحبة واسع جداً ولكننا سنوجزه بست نقاط:

أولها: غريزة الحب

وهي غريزة مهمة تمثل الأحاسيس والمشاعر فطرها الله - تعالى - في البشر ، وللدلالة عليها نذكر منها التعلق بحب آثار المحبوب الغائب ، فكم من الآباء والأمهات شم رائحة قطعة من ملابس ابنهم المسافر ، وكم من أم مرضع ينزل الحليب من ثديها بدون سيطرة منها وهي بعيدة عن طفلها الرضيع عندما تتذكره شوقاً إليه ، ويتجلى ذلك واضحاً عندما شم النبي يعقوب - عليه السلام - رائحة قميص ابنه عن بعد . قال - جل وعلا - على لسانه: ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾[1]. ويتجلى الحب في تعلق المسلمين بالكعبة

---

(١) سورة يوسف: ٩٤.

المشرفة ، وهي بيت الله – جل جلاله – المركوز في أرضه، والطواف حولها يرمز إلى شوق الفؤاد والقلب والروح لعبادة المحبوب المنعم – عز وجل – ، وتقبيل الحجر الأسود إنما هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الحب وتعلق الأفئدة بما يريده الملك القدوس . قال – تعالى :- ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾[1]. وكذلك فإن حب سورة الإخلاص كانت سبباً في دخول رجل من الأنصار الجنة ، كما أورد البخاري في صحيحه أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال له: (وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة فقال إني أحبها فقال حبك إياها أدخلك الجنة) . وكذلك حب بيوت الله – عز وجل – حيث كان أحد الأسباب السبعة في دخول الجنة . قال الرسول – صلى الله عليه وسلم :- (ورجل قلبه معلق في المساجد) [صحيح البخاري] .

---

(١) سورة إبراهيم: ٣٧.

ثانيها: أنواع الحب وهو نوعان:

الحب الصحيح وأعلى درجاته حب الله - عز وجل - حيث يؤدي إلى عبادته . قال - تعالى -: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ** ﴾[1]. ثم تأتي محبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: (من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله) [صحيح مسلم] . ثم بقية الدرجات المباحة مثل محبة الأهل وفضل الحب في الله عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: (أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته - أي طريقه - ملكاً فلما أتى عليه قال أين تريد قال أريد أخاً لي في هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة تربها - أي تتمها - قال لا غير أني أحببته في الله - عز وجل - قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) [صحيح مسلم] .

والحب الخاطئ مثل حب المال حباً كثيراً فاحشاً مع الحرص والشره والبخل في إنفاقه . قال - جل جلاله -:

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً** ﴾[1]. وكذلك حب الحياة الدنيا الفانية وتفضيلها على الحياة الآخرة الباقية . قال – تعالى –: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾[2]. وأسوأ درجات الحب الخاطئ حب المشركين لأنداد من غير الله – عز وجل – . قال – سبحانه –: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ** ﴾[3].

ثالثها: علاقة الحب بالفؤاد والقلب والروح

ولدراسة هذه العلاقة المهمة نستند على قوله – تعالى –: ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[4]. أي أن الفؤاد غير القلب وذلك لأن فؤاد أم موسى قد أصبح فارغاً من شدة الشوق ، وكادت أن تكشف أمر ابنها حين سمعت بوقوعه في يد الطاغية فرعون ، لولا أن ثبت الله – عز وجل –

---

(١) سورة الفجر: ٢٠.

(٢) سورة النحل: ١٠٧.

(٣) سورة البقرة: ١٦٥.

(٤) سورة القصص: ١٠.

قلبها وهو المهيمن في اتخاذ القرار . ولشرح ماهية الفؤاد وأخذ فكرة عنه نذكر قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (إن التلبينة تجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن) [صحيح البخاري] . أي أن فؤاد المريض له علاقة بالحزن والتلبينة هي الحساء الرقيق من الشعير المطحون تذهب ببعض الحزن وتجعل الفؤاد أكثر سعادة . وقد أكد أهل اللغة أن الفؤاد هو المسؤول عن الحب والبغض والحزن أي الأحاسيس والمشاعر ونذكر نموذجين منها: حيث يقول الفراهيدي في كتابه العين: (وسمي الفؤاد لتفؤده أي لتوقده . وفئد الرجل فهو مفؤود أي أصابه داء في فؤاده والرجل يعشق المرأة فتتبل فؤاده)، ويقول ابن منظور في لسان العرب: (والحوبة رقة فؤاد الأم) . وجاء عن الفؤاد في أحد البحوث الذي استغرق إعداده عشرين عاماً والذي تم إلقاءه في المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة لسنة - ٢٠٠٤ ميلادية -: (إن مكان الفؤاد في عمق المخ وهو يمثل العواطف والحب والشعور والأحاسيس وهذه أصبحت حقيقة علمية) .

أما عن القلب ورد في صحيح مسلم عن النبي - صلى

الله عليه وسلم – (إذ جاء جبريل – عليه السلام – فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة فقلت للذي معي ما يعنى قال إلى أسفل بطنه فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيمانا وحكمة) . وروى البخاري عن النبي – صلى الله عليه وسلم –: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) . وقال الفراء عن قوله – سبحانه –: ﴿ **لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾[1]. أي عقل .

وأكد أهل العلم أيضاً هذا الموضوع حيث يقول الشيخ الزنداني: (إن الفؤاد هو شئ آخر غير القلب والله – عز وجل – فرق بينهما وإن أحد الباحثين المصريين من الأطباء بين أن الآيات المذكور فيها الفؤاد في القرآن الكريم ، تركز على المشاعر والعواطف مثل قوله – تعالى –: ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء** ﴾[2]. وإن القلب موجود في الآيات ، التي تركز على العقل والربط مثل قوله – سبحانه –: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي**

---

(١) سورة ق: ٣٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٤٣.

الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾[1]. وإن مكان هذه القلوب في الصدور . قال – تعالى –: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾[2]. وأن القلوب المقصودة في الآية والله أعلم ، هي العلاقة بين قلب البدن وقلب الروح وكل الدلائل تدل على أن القلب المؤثر والمهيمن هو قلب الروح وأن محل هذه القلوب في الصدور وليس في الأدمغة) .

وتأكيداً لأهمية قلب الروح وما ذكره الشيخ الزنداني نبين أن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – قال عن مسؤولية الأرواح في اتخاذ القرارات: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) [متفق عليه] . ونقتطف مما يقوله ابن حجر في فتح الباري: (فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر فإذا اتفقت تعارفت وإذا اختلفت تناكرت) . وكذلك يتجلى واضحاً أن الأرواح بعد انفصالها عن أجساد الشهداء تجازى خيراً في عالم البرزخ ، وذلك لمسؤوليتها في اتخاذ قرار

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) سورة الحج: ٤٦.

الشهادة في الحياة الدنيا ، كما جاء في صحيح مسلم وشرحه النووي عن النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في الشهداء: (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل) . وكذلك فإن أرواح الكافرين بعد الموت تذهب وراء البرزخ ، وهي الخاطئة في الحياة الدنيا والآخرة وتعذب بعرضها على النار وهو سوء العذاب ، وذلك لمسؤوليتها في قراراتهم الخاطئة في الحياة الدنيا . قال – عز وجل – عن آل فرعون: ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[1]. ويقول – جل وعلا – عن الروح ومسؤوليتها عن اتخاذ القرار وهي تقول من وراء البرزخ: ﴿ **رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[2].

---

(١) سورة غافر: ٤٥-٤٦.

(٢) سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

ويتضح جلياً أن الفؤاد يحب الصحيح أو الخطأ ، والقلب يتخذ القرار فإذا كان صحيحاً تثاب هذه الأجهزة وإذا كان خطأ تعاقب . قال – تعالى –: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[1]. وعن القلوب . قال – سبحانه –: ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾[2].

وقد وردت كلمة ﴿ **فُؤَادَكَ** ﴾ مرتين ، و﴿ **قَلْبِكَ** ﴾ ثلاث مرات في القرآن الكريم وفيها كاف المخاطبة مختص بالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) سورة الإسراء: ٣٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٥.

رابعها: موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة

إن الإسلام وقف مؤيداً للحب الصحيح المستقر ، ولكن بميثاق غليظ وهو الزواج ، وإن حدثت مشاكل فإنه يتعامل معها حسب الحالة . ونورد نموذجاً على ذلك ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس: (إن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لعباس يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لو راجعتيه قالت يا رسول الله تأمرني قال إنما أنا أشفع قالت لا حاجة لي فيه) يقول ابن حجر: (إن الحب والبغض بين الزوجين لا لوم فيه على واحد منهما لأنه بغير اختيار وجواز بكاء المحب على فراق حبيبه وإنه لا عار على الرجل في إظهار حبه لزوجته وعن قول بريرة للنبي – صلى الله عليه وسلم – تأمرني ظاهر في أنه لو قال نعم لقبلت شفاعته) .

وفي الحقيقة إن الحب إذا كان صحيحاً ومتمثلاً بالزواج ، فيثاب عليه المسلم في الآخرة إلا أن مدة متاعه في الدنيا قليلة إذا ما قورنت بالحياة الآخرة الأبدية ، أما إذا كان

خاطئاً ومتمثلاً بالزنا فيعاقب عليه في الآخرة وأن مدة متاعه في الدنيا أيضاً قليلة ولكن مآسيه كثيرة ، لهذه الأسباب ينبغي للعاملين في وسائل الإعلام الخوف من حساب الله – عز وجل – واحترام عفة المرأة وعدم ترويج الإساءة لجسدها واستعماله في الفساد وإشاعة الفاحشة . وهذا هو حق المرأة الذي ضمنه الإسلام لمصلحتها ومصلحة المجتمع .

خامسها: آيات الحب في الزواج

ونضرب مثلاً على ذلك عندما تتزوج المرأة من رجل غريب عنها وفي العموم وبعد فترة قليلة من الزمن تصبح محبة له وتنسجم معه كانسجامها مع أهلها الذين عاشت معهم سنين كثيرة بحلوها ومرها وكذلك الرجل . قال – تعالى –: **﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾**(١).

---

(١) سورة الروم: ٢١.

سادسها: ميزات الحب المتبادل

إن علاقة الحب تبادلية كقوله – سبحانه –: ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾[1]. ولها نتائج بين المحب والمحبوب وصفها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في أروع وصف فقال: (إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض) [صحيح البخاري] . وعن قبول المسلمين من أهل الأرض للصحابة – رضي الله عنهم – نتيجة للحب التبادلي بينهم وبين الله – عز وجل – لقوله – تعالى –: ﴿ **رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ** ﴾[2]. ويتجلى ذلك واضحاً في الخلفاء أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – حيث قبول الرسول – صلى الله عليه وسلم – بهما عندما تزوج عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر – رضي الله عنهم أجمعين – وكذلك ذكر ملايين المسلمين لهما في الحج والعمرة وغيرها عندما يأتون لزيارة قبر الرسول – صلى الله عليه

---

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) سورة التوبة: ١٠٠.

وسلم – في المدينة المنورة وهذا هو خير القبول في أهل الأرض .

أما عن الخليفة عثمان ذي النورين – رضي الله عنه – فقد قبل به النبي – صلى الله عليه وسلم – زوجاً لابنته رقية وعندما ماتت زوّجه ابنته أم كلثوم – رضي الله عنهما – . وحين نزل قوله – سبحانه –: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾[1]. وهذه هي بيعة الرضوان حيث بايع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ألف وأربعمائة من الصحابة وحضرها جبريل – عليه السلام – وبسبب وجود الخليفة عثمان – رضي الله عنه – في مكة المكرمة للمفاوضات فقد ضرب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعثمان – رضي الله عنه – خيراً من أيديهم لأنفسهم ، وكذلك ذكر المسلمين له عن جمع القرآن الكريم وهذا هو خير قبول له في أهل الأرض .

أما عن محبة الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – والد سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي نبي هذه الأمة

---

(١) سورة الفتح: ١٨.

- صلى الله عليه وسلم - الحسن والحسين وزوج ابنته فاطمة الزهراء البتول - رضي الله عنهم أجمعين - فنذكر قول النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بحقه والوارد في صحيح مسلم: (قال علي والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق) . وهذا هو قبول أفئدة المسلمين لابن عم النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو خير قبول في أهل الأرض .

الحقيقة العاشرة: القرآن والفطرة الخارقة في بيت العنكبوت

فطر الله – تعالى – المخلوقات ومنها العنكبوت بعجائب كثيرة منوعة ، وذلك ليخاطب حواس الإنسان ومداركه حتى تستشعر عظمة الخالق . وذكرت ﴿ **الْعَنكَبُوتِ** ﴾ مرتين في القرآن الكريم في كل منها إعجاز بالغ في تصويره ، وسميت سورة كاملة باسمها لما تتميز به العناكب من فطرة عجيبة . قال – سبحانه –: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

بين أهل اللغة أن العنكبوت دابة والغالب عليها التأنيث وقد تذكر ونذكر نموذجين منها ، يقول ابن منظور في معجم لسان العرب: (قال الفراء: العنكبوت أنثى ، وقد يذكرها بعض العرب ، قال: والتأنيث في العنكبوت أكثر) . وقال الزبيدي في تاج العروس: (والعنكبوت مؤنثة وقد تذكر) .

وإن العنكبوت تقع ضمن شعبة المفصليات صنف العنكبوتيات ولها ثمان أرجل وهي تعيش على شكل عوائل

---

(١) سورة العنكبوت: ٤١.

من أنواع كثيرة لكل نوع منها جسم وبيت ذات شكل متميز وغيرها من العادات التي تختلف عن الأنواع الأخرى .

وسنسلط الضوء على ثلاثة مواضيع مهمة:

أولها: البيت المادي للعنكبوت

وفي العموم يتم إنشاؤه بواسطة الخيوط الليفية الشبيهة بالحرير التي تخرج في العادة من ثلاثة أزواج أو أحياناً أربعة أزواج من الغازلات من مؤخرة بطن الأنثى . قال – تعالى –: ﴿ **كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً** ﴾ إن تاء التأنيث الساكنة في ﴿ **اتَّخَذَتْ** ﴾ فيها دلالة على أن الأنثى هي التي تنسج البيت وهذه حقيقة علمية بايولوجية . لذلك فإن العنكبوت التي جاءت في هذا الموضع تمثل عموماً الأنثى الناسجة . ووردت بصيغة المفرد لأنها غاية في التخصص وهي المسؤولة عن نسج الخيوط الدقيقة وهذه الشبكات الهندسية العجيبة ، بعكس مخاطبة القرآن للنحل كمجموعة ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ ولم يخاطبها بصيغة المفرد (أي النحلة) لأن نحلة العسل لا تستطيع العيش بمفردها وتتقن عملها إلا أن يكون جماعياً ضمن الطائفة في الخلية . وإن ﴿ **بَيْتاً** ﴾ المقصود في هذا الموضع هو البناء النسيجي

المادي .

وقد لوحظ أن الإناث من اليرقات تبدأ بالنسج أول ما يفقس البيض بشكل كتلة غير منتظمة ، لذلك يكون نسجها حول حشود المجموعة عشوائي ، ولتكون كتلة من الخيوط حول أجسامها تقيها من الظروف البيئية ، وهذا ما لوحظ لدى العنكبوت المعروف بأورب ، وإذا حدث أن أحداً خرب هذه الكتلة النسيجية حول الصغار ، فيلاحظ أنها تهرب بمختلف الاتجاهات ثم تتجمع مرة أخرى لتشكل حشوداً وتنسج كتلة أخرى . ومن الجدير بالذكر أن نبين أن السر وراء انتشار العناكب على عموم سطح الأرض وفي أماكن مختلفة مثل المنازل والحدائق والمزارع والكهوف والجبال والوديان وغيرها يرجع إلى عدة عوامل ، مثل الإلهام الغريزي عند قسم من العناكب لتحديد مواسم الزواج بحيث تفقس البيوض وتخرج الأجيال الصغيرة في وقت مناسب يتصف عموماً باعتدال الطقس ، عندها تتسلق الصغار هامات النباتات أو أي شئ آخر مرتفع ، ثم تنطلق وتتحرك مع التيارات الهوائية متعلقة بخيوط من النسيج تستعمله كالباراشوتات أو البالونات التي ترتفع إلى أعلى ، وبعد فترة

تعتمد على الظروف تهبط في أماكن مختلفة من الأرض ، وإن كان المفقود منها كثيراً أثناء هذه الرحلة الجماعية بسبب مخاطر الطريق فإنه يعوض من خلال معدل النسل الكبير .

وعموم العناكب لها مستقبلات حسية صوتية ، تستجيب لبعض الذبذبات الصوتية الصادرة من الأجسام عندما تقترب وتؤثر على شباكها ، وكذلك لها مستقبلات حسية ضوئية تتأثر بشدة الضوء ، وغرائز أخرى تتحسس مخاطر البيئة ، وهي تأخذها بنظر الاعتبار عند اختيار المكان المناسب للشبكة .

ومن العجيب أن أنثى العنكبوت تنزل خيطاً إلى الأسفل وهو الخيط الجسري وتستعمله كصقالة خارجية (إسكلة) تساعدها على غزل الشبكة وأنها تنسجها بخصائص هندسية مختلفة تعتمد على نوع العائلة التي تنتمي إليها ، مثل الشبكات الصفائحية والقمعية وغير المنتظمة وعلى أشكال مثل الرباعي والدائري ومتعدد الأضلاع وغيرها ، لذلك لا يجوز أن يقال بيت العناكب لأن معناها يوحي أن لكل عوائل العناكب بيتاً بشكل واحد ، وهذا خلاف الحقيقة وطبيعة الشبكات عندهم ، وأن مسار الخيوط سواء أكانت متوازية أو

على شكل شبه دوائر وغيرها إلا أنها تتلاقى مع خيوط أخرى باتجاهات مختلفة ، والمهم في الموضوع أن نذكر أن نقاط التقاء هذه الخيوط تكون معقودة بقوة لمقاومة الاجهادات المختلفة مثل تحرك الحشرات المصطادة .

وتكون حركة العنكبوت على الشبكة بأرجلها في خفة وتوازن عجيب ، سواء على خيط واحد دقيق جداً أو أكثر وهي تعرف مسارها ولا تظلها أو أن تكون فخاً لها وبدون أن تقطعها وبسرعة تعتمد على متطلباتها وهي تتحسس بالاهتزازات الميكانيكية التي تحدث في شباكها وتتصرف حيالها حسب درجة الذبذبة ، وأن اهتزاز الحشرات المصطادة تجعلها تهجم وتنقض عليها بسرعة ملفتة للنظر ، وإن تعرضت لهزة أقوى فهي تلجأ إلى ركن الشبكة ، وإذا كانت الهزة قوية جداً في حالة مهاجمة شبكتها فهي في العموم تتخذ الخيوط التي تغزلها آنياً أو أن تكون موجودة مسبقاً للهروب بعيداً عن الشبكة أو تتحرك على الجدران والسقوف وغيرها وحسب متطلبات الحالة .

ونقتطف مما يقوله الدكتور المهندس خالد فائق العبيدي في كتابه المنظار الهندسي للقرآن الكريم: (إذ يشكل بيت

العنكبوت شكلاً معمارياً جميلاً ، لذلك أصبح يقلد على نطاق واسع في منشآت عديدة تحاكي شبكة العنكبوت وأن المساحات والفضاءات الواسعة التي يشكلها الهيكل العنكبوتي بالنسبة لحجمه الصغير ومقارنة ذلك في الاستخدامات البشرية مثل السقوف المعلقة فضائياً وكذلك الجملونات الفضائية الكبيرة ونظام المساند التي تستطيع تحمل هكذا فضاءات وأوزاناً وما يتبعها من اجهادات كبيرة ، كما أن تركيز خيوط العنكبوت في الوسط أكثر من الخارج ، يعطي فكرة مقاومة الهطول وأن المتانة والقوة والمرونة هي الصفات التي تتمتع بها الشبكة العنكبوتية من الناحية الإنشائية ، فهي تمثل الأسلوب الشعاعي لمعالجة الاجهادات والانفعالات وأن المادة اللدائنية لنسيج العنكبوت لها من الخصائص القريبة جداً من النسيج الحريري وأسلاكه والذي يعتبر من أقوى الأسلاك بالإضافة إلى مرونتها وخفة وزنها وقابليتي اللصق والعزل العاليتين وخصائص أخرى ، وأن بعض العناكب تقوم بنسج غرف الحضانة لذريتها وغرف الرقاد في فصل الشتاء وأخرى غرف للزواج) .

ومن المعجز في هذا الموضوع وبعد إجراء مقارنة

لتقريب صورة هذا النسيج إلى الذهن أن الرسام أو المهندس الذي يريد أن يرسم هذه الشبكات العنكبوتية ليحتاج إلى قلم ومسطرة ومثلث متحرك وستينسل دوائر وإضاءة جيدة ، أما أنثى العنكبوت فتقوم ليس برسمها فقط وإنما بنسجها أيضاً وبدون هذه الأدوات الهندسية في الليل والنهار بالرغم من أن عيون العناكب الناسجة في العموم ضعيفة وبسيطة وليست مركبة ، وأن استمرار نسجها في الليل أي في ظلام دامس ليبين أن أنثى العنكبوت تنسج بإلهام من الفطرة الخارقة التي أودعها إياها الخالق العظيم . فمن علم أنثى العنكبوت الرسم في الظلام وبدون أدوات هندسية ؟ أليس هذا إعجازاً للمهندسين المعماريين ؟ ومن علمها أخذ اجهادات الشد بنظر الاعتبار في نسج هذه الخيوط الدقيقة بهذه الأشكال الهندسية الرائعة في الظلام وبدون الحاجة لفحص مادة هذه الخيوط في المختبر لمعرفة صلاحيتها ؟ أليس هذا إعجازا للمهندسين الإنشائيين ؟ ومن ألهمها تحويل سائل من مادة تجف بسرعة خلال عملية الإفراز لتنتج خيوط ليفية دقيقة شبيهة بالحرير وبدون مكائن ؟ أليس هذا إعجازاً للمهندسين الكيميائيين ؟ قال – جل وعلا –: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**

ثُمَّ هَدَى ﴾[1].

ويتبين أن بيت العنكبوت المادي ذات شبكة مصممة بشكل جيد ونسيج قوي ومتين لذاتها ومتطلبات حياتها ، إلا أنه عندما يكنس من قبل الناس في السقوف والجدران وغيرها فسرعان ما يتهاوى لكونه رقيقاً .

ثانيها: البيت العائلي للعنكبوت

من الصعوبة التمييز بين الذكر والأنثى لليرقات الفاقسة ، ولكن بعد فترة من النمو يلاحظ أن الأنثى تنمو أسرع من الذكر وهي في العموم أقوى وأكبر حجماً منه لنفس النوع ، وأن الزواج مهم في حياة عموم العناكب أسوة بكثير من الكائنات الحية لأنه الأصل في تكاثرها ، وهو عند البشر يتصف بالسكينة والمودة والرحمة . قال – سبحانه –: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾[2]. أما عند عموم العناكب فإن الذكر يطرح الحيامن ، ثم يتناولها بالملمس القدمي والموجود في مقدمة الجسم ويقترب بحذر شديد من الأنثى ، لكي يضع

---

(١) سورة طه: ٥٠.

(٢) سورة الروم: ٢١.

هذه الحيامن في الكيس المنوي في جسم الأنثى ، لأنه يعلم بإلهام الغريزة أنه سوف يقتل ويأكل من قبل الأنثى إذا كانت في مزاج نفسي لعدم استقباله. ولو تصورنا مخاطر هذا الزواج ومحاولة هروب الذكر وفراره من هذا المصير المفزع ، لعلمنا أن الزواج في عالم العناكب يتسم بالغرابة ، وفيه قسوة ورعب وقتل وليس فيه سكينة ومودة ، إضافة لذلك فإن قسم من الأبناء يأكل بعضهم بعضاً بعد الخروج من البيض وهو ما يدعى بالافتراس الذاتي ، وأن نسيج العنكبوت فخ وكمين لبعض الحشرات التي تقترب منه ، وفي العموم تفرز العناكب مادة سامة لتخديرها فتكون الحشرات سهلة الافتراس . وهذه الصفات عند العناكب تجعل بيوتها العائلية أضعف البيوت اجتماعياً ، وتتميز بالتفكك الأسري ، وهذا هو المقصد الأساسي في ﴿ **أَوْهَنَ الْبُيُوتِ** ﴾ وإن الإشارة ﴿ **لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ** ﴾ الواردة في هذا الموضع هي للبيت العائلي الواهن اجتماعياً والله أعلم في قوله – تعالى –: ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثالثها: الرزق المتميز للعنكبوت

إن القرآن الكريم يتميز بوضع الشئ في مكانه بإعجاز بالغ مثل قوله – جل جلاله – في سورة العنكبوت: ﴿ **وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[1] ونقتطف مما يقوله صاحب صفوة التفاسير: (أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها ﴿ **اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ﴾ أي الله – تعالى – يرزقها كما يرزقكم) . ومن المعلوم أن تغذية العناكب حيوانية وأنها في العموم تنتظر الحشرات التي تحمل إليها وتقترب من بيتها وهو فخ لها وهذا هو رزقها الرئيسي ، وهذه العناكب تعتبر جزءاً متميزاً ومهماً من الدواب الذين لا يسعون ويبحثون عن رزقهم وإنما يسوقه الله – عز وجل – إليهم حتى لا يدعهم يموتون جوعاً .

ومن الجدير بالذكر أن نبين أن الله – جل وعلا – هيأ لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه أبي بكر – رضي الله عنه – شبكة العنكبوت لتحميهما من مكر الكفار . يقول الإمام أحمد في مسنده: (فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٠.

خلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه) . ويقول القرطبي في تفسيره: (وأرسل العنكبوت فنسجت بيتا عليه . فما أضعف هذه الجنود في ظاهر الحس وما أقواها في باطن المعنى) . ويكفي العنكبوت تميزاً أن ألهمها الله – جل جلاله – أن تنسج على مدخل الغار الذي آوى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه أبا بكر – رضي الله عنه – في الهجرة النبوية المباركة .

وفي الختام يتبين مدى الإعجاز البلاغي والعلمي في ترابط الكلمات الوثيق في موضوع البيت المادي والبيت العائلي والرزق للعنكبوت في القرآن الكريم . وإن في قوله – تعالى – في سورة العنكبوت: الآية ٤٣ : ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ . يتضح للعلم البشري بعد التقدم الهائل في العلوم يوماً بعد يوم حقائق عجيبة عن الخلق في القرآن الكريم ، وقد ضرب الله – عز وجل – مثلاً حسياً رائعاً عن صفة بيت العنكبوت المنشأ بإتقان ، والمرعب بسبب القتل بين أفراده والمكبل بالسلاسل

الخيطية للحشرات كي يسمها ويقتلها ، وكذلك الذين يلجئون إلى غير الله – تعالى – في العبادة ويشركون بـــه ، فـــإنهم يفتنون في الآخرة باللجوء إلى مأوى فيه نار متأججة وسموم وحميم وسلاسل تشد بها أرجلهم تمنعهم من الهروب عنهـــا وخصام بينهم . قال – سبحانه –: ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُـــمُ أَهْلِ النَّارِ** ﴾[1]. وما يدرك هذه الأمثال ويفهمها إلا العالمون الذين يعقلون مراد الله – عز وجل – ويقولون: ﴿ **رَبَّنَا مَـــا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾[2].

---

(١) سورة ص: ٦٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٩١.

الحقيقة الحادية عشر: لمحات عن مفهوم العمل في الإسلام

وردت كلمة عمل ومشتقاتها كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وجاء قسم منها مرتبط بالأعمال الصالحة . كقوله – تعالى –: ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾[1]. ويلاحظ أن الخطاب القرآني في العموم موجه للذكور والإناث .

وارتبط قليل منها بكلمة السوء بجهالة أو مشابهاتها في الفعل ، أي عمل الخطيئة عن غير قصد كقوله – سبحانه –: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ** ﴾[2].

وارتبط قسم منها بالسيئات ومشابهاتها في الفعل ، أي عمل الخطيئة عن قصد عند الكفار والظالمين كقوله – تعالى –: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ**

---

(١) سورة غافر: ٤٠.

(٢) سورة النساء: ١٧.

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[1].

وارتبط قسم منها بدرجات العمل سواءً أكان سيئاً أم صالحاً كقوله – جل وعلا –: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

ولنضرب مثلاً على أهمية العمل ، وهو أن أحداً ما دق جرس بيتك وأعطاك سيارة حديثة مع خمسة كيلوات من الذهب وسجل عقاري لبيت حديث مع كامل أثاثه وملابس متنوعة وبدون مقابل فهل تصدق ذلك ؟ فالجواب حتماً كلا . وكذلك الأرض بكل خيراتها والشمس والقمر بكل فوائدهما والسماء وعظمتها والهواء والماء ومنافعهما والزوجية في الخلق في كل شئ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[3]. فهل كل هذا الفضل العظيم والنعم التي أعطاها الله – عز وجل – للإنسان بدون مقابل أو بدون عمل ؟ والجواب قطعاً كلا . وإنما يريد الله – سبحانه – من

---

(١) سورة النساء: ١٨.

(٢) سورة الأنعام: ١٣٢.

(٣) سورة إبراهيم: ٣٤.

الإنسان أن يتوجه في كل عمل في حياته قاصداً به رضاء الله – تعالى – وبذلك يتحقق الهدف من خلقه ومنحه هذه النعم . قال – جل وعلا –: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1].

إن بناء الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة متنوعة وكثيرة ، وأهمها عبادة الله – عز وجل – التي ذكرت في مؤلفات كثيرة ، ولكننا سنكتفي بذكر نماذج من العمل المادي المباح ويقصد به رضاء الله – تعالى – وشكره على نعمه لندلل على عظمة هذا الدين:

ونضرب مثلاً يحث على العمل الصالح والحض على عمارة الأرض ، وذلك في سؤال النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – لأم مبشر الأنصارية في نخل لها . قال: (من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر فقالت بل مسلم فقال لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شئ إلا كانت له صدقة) [صحيح مسلم] . ونقتطف مما يقوله النووي في شرحه لهذا الحديث الشريف: (في هذه الأحاديث فضيلة الغرس وفضيلة الزرع وقد

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها فقيل التجارة وقيل الصنعة باليد وقيل الزراعة وهو الصحيح ، وفي هذه الأحاديث أيضاً أن الثواب والأجر في الآخرة مختص بالمسلمين) . أي أن من يأخذ بالأسباب في أعمال الغرس والزرع فهو يحصد النتائج ، إلا أن المسلم يحصد النتائج في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، أما الكافر فيحصد النتائج في الحياة الدنيا فقط ويعذب في الآخرة .

ونقتطف من صحيح البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: (إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق) .

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم فقال أصحابه وأنت فقال نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) [صحيح البخاري] . وهذا نموذج من الخطاب النبوي يمثل العمل الفردي الخاص بمهنة الرعي وفيه دلالة على أن الأنبياء – عليهم السلام – وهم قدوتنا كانوا يعملون بالرغم من تكاليفهم الإلهية .

ونقتطف من صحيح البخاري أيضاً: (أن رسول الله –

صلى الله عليه وسلم – أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فإنكم على عمل صالح) . وهذا نموذج من الخطاب النبوي يمثل نوع من العمل الجماعي الصالح يخص سقي الناس بماء زمزم والعمل فيه .

ونتواصل بذكر نموذجين للعمل من القرآن الكريم:

أولهما: العمل في صناعة الحديد

جاء ذكر الحديد ست مرات وأنزل الله – تعالى – سورة كاملة باسمه في كتابه العزيز لأهمية العمل في إنتاجه ومكانته المتميزة في عالم الصناعة . قال – جل وعلا –: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[1]. إن جو التنزيل في هذه الآية للرسل – عليهم السلام – ومعهم الكتب السماوية والميزان والعدالة للعمل بها وأهميتها في إسعاد البشرية ، وكذلك نعمة الحديد في تصنيع الآلات الحربية لرد العدوان والأجهزة النافعة للناس . وهذا هو إشعاع النور القرآني لجوهر الأعمال الصالحة .

---

(١) سورة الحديد: ٢٥.

يقول الدكتور المهندس خالد فائق العبيدي في كتابه المنظار الهندسي للقرآن الكريم عن قوله – سبحانه –: ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً** ﴾[1]. { فإن ذي القرنين استخدم أهم تقنيتين في صناعة الحديد الأولى هي العمل الحار (التسخين والنفخ) . والثاني هو العمل البارد (الفرش على الجبلين الذي سيحصل للحديد بعد صهره) . وكلاهما يعطي أهم ثلاث خواص للحديد (صلابة + مطاوعة + متانة) . إضافة إلى سكب النحاس عليه ليعطيه صلادة مضافة وصقالية عالية ومقاومه للتآكل (ديمومة + صقالية) . وهذه هي بحق زبدة صناعة المعادن. أضف إلى ذلك أن الآية تطرقت إلى السبب: ﴿ **فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** ﴾[2]. وهذا بالضبط تفسير سبب خلط النحاس مع الحديد ذلك لأن النحاس له متانة عالية وصقالية عالية فلا يستطيعون تسلق السد بسبب صقاليته ولا يستطيعون ثقبه بسبب قوته .

---

(١) سورة الكهف: ٩٦.

(٢) سورة الكهف: ٩٧.

وعن قوله – عز وجل – إخباراً عن النبي داود – عليه السلام –: ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[1]. تصوير إعجازي آخر لعملية تشكيل اللوالب والمسامير والبراشيم في صناعة الحديد الإنشائية الحديثة وهي أساس علم يسمى علم مقاومة المواد ، ومن الجدير بالذكر هنا أن مادة الحديد تؤخذ في هذا العلم كمادة نموذجية يبنى عليها جميع النماذج الأخرى والنظريات المتعلقة بها لما لهذا المعدن من خصائص فريدة } .

وهذا مستنبط من القرآن الكريم قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، حين وضع تقنيات متقدمة لأعمال الحديد في الوقت الذي كانت فيه صناعات الحديد بدائية .

ثانيهما: العمل في مجال غزو الفضاء

إن إرسال الأقمار الصناعية والوصول للقمر وبعض الكواكب الأخرى يتطلب الحذر لما تواجهه المركبات الفضائية خارج الغلاف الجوي من المخاطر ، فعند نفوذ الإنسان ووصوله إلى هذه الكواكب والمسارات القريبة من

---

(١) سورة سبأ: ١٠-١١.

الأرض ، فيجب أن يتم ذلك باتباع الوسائل العلمية إضافة إلى الانتباه باستحالة الوصول إلى حدود أقرب نجم منا والمرور بين النجوم لبعدها الهائل عن الأرض .

وهذا مستنبط من القرآن الكريم عن إمكانية العمل في مجال غزو السماء في الوقت الذي كانت فيه المواصلات على الأرض بواسطة الحيوانات كالإبل والخيل وعلى الماء بواسطة السفن . قال – تعالى –: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ** ﴾[1].

وإننا إذ نبين هذه الآيات والأحاديث التي تدلل على أن في الإسلام روحاً وأخلاقاً عظيمة ، تبعث الأفراد والجماعات إلى العمل كل حسب عصره واختصاصه ، وهي من أقوى الأدلة على أن الإسلام هو دين التقدم العلمي والصناعي وفيه كل التشجيع للارتقاء بالأمة إلى سلم المجد والرقي . لذلك فإن المسلمين الأوائل انتشروا في الأرض يبلغون دعوة الإسلام وانتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين وأصبحت جامعاتهم وما اكتشفوه في

---

(١) سورة الرحمن: ٣٣.

الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات معلومة عند الباحثين ، وإن كل الأسباب متوفرة لتقدمهم في الوقت الحاضر خصوصاً وقد حباهم الله – جل جلاله – بالنفط وأكثرية المواد الأولية . ولكن سبب تخلف قسم من المسلمين في العصور المتأخرة في مجال التقدم الصناعي يرجع إلى ابتعاد كثير منهم عن تشريعهم الإلهي ، إضافة إلى مكر كثير من الدول المتقدمة تكنولوجياً بهم وخصوصاً المستعمرة منها والتي وضعت أشكالاً من المخططات الخادعة بغية عرقلة مسيرتهم العلمية والعملية . ولكن الله – عز وجل – بقوته هيّأ الأسباب وجعل علوم وصناعات هذه الدول المتقدمة مثل الطائرات في خدمة المسلمين المسافرين بواسطتها عند حج البيت من استطاع إليه سبيلا وفي شؤون الخير الأخرى ، وقضى بأن تكون بعض حاسباتهم ومطابعهم في خدمة طباعة القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما وبقية الكتب الإسلامية التي فيها هداية للبشرية ، وجعل قسماً من وسائل الدعوة الإسلامية ميسرة عن طريق مخترعاتهم التي تبث وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والانترنيت وأجهزة الاتصالات . وأصبحت حجة التبليغ للمسلمين على كثير من

الناس معلومة . قال – تعالى –: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

وفي الختام تتجلى أمامنا سورة النمل ، وهذه النملة الغيورة على قومها حيث تحذرهم من المخاطر المحدقة بهم، وقد وجد العلماء أن بناء مساكن النمل يتم بتفاهم عجيب ومثابرة على العمل . قال – سبحانه –: ﴿ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾(٢).

وكذلك الانتباه لإتقان الله – جل وعلا – صناعته لكل شئ في هذا الوجود والله خبير بما يفعل العباد وضرورة إتقانهم للعمل . قال – عز وجل –: ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** ﴾(٣).

وإضافة للإتقان فإن الإسلام هو أول دين أخذ بنظام الجودة ، مثل آية الدّين التي تُحدد التعامل بالمكاتبات (التوثيق) . قال – سبحانه –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا**

---

(١) سورة يوسف: ٢١.

(٢) سورة النمل: ١٨.

(٣) سورة النمل: ٨٨.

تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾(١).

وبالرغم من هذه التوجيهات القرآنية المباركة والإرشادات النبوية الطاهرة وذلك للأخذ بأسباب التقدم العلمي والمادي وبأخلاق فاضلة ، إلا أن الواقع في العصور المتأخرة هو أن غير المسلمين في العموم هم الذين تقدموا في مجالات العلم والصناعة ، لذلك فالدعوة مفتوحة للمسلمين وخاصة علمائهم للأخذ بأسباب التطور والتحرك كل حسب طاقته ، وذلك للتقدم العلمي والصناعي والمنافسة العالمية بخطوات ثابتة وصبر وعزم أكيد متوكلين على الله – عز وجل – وآخذين بمفهوم الأعمال الصالحة في الإسلام. قال – تعالى –: ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٢) سورة التوبة: ١٠٥.

الحقيقة الثانية عشر: مفهوم الميزان في القرآن والسنة

وردت كلمة الميزان ومشتقاته كثيراً في القرآن الكريم والسنة النبوية وذلك لأهميته ، وقد جاء ذكره مع رفع السماوات بما فيها من توازن عجيب ، وبناء عظيم ، وقوى جذب تذهل العقول ، وهذه المجرات ذات النجوم التي يعجز الإنسان أن يحصي أعدادها الهائلة ويتصور حجومها الكبيرة، وأن أي خلل في مسارات النجوم يؤدي إلى اضطراب الكون ، وكذلك الخلل في الميزان وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾[1]. وجاء ذكره أيضاً مع القرآن الكريم وسائر الكتب الإلهية المنزلة على الرسل – عليهم السلام – وإن عدم الاعتماد على تعاليمهم يؤدي إلى الظلم ، وكذلك عدم الاعتماد على الميزان. قال – سبحانه –: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾[2].

وللميزان ومشتقاته معاني تحتاج إلى مؤلفات كثيرة ولكننا نوجزها بموضوعين:

---

(١) سورة الرحمن: ٧.

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

أولهما: الموازين الإلهية

وهي نوعان موازين كونية وأخرى للعدل المطلق في الحياة الآخرة:

أما موازين الله – جل وعلا – في هذا الكون فتتجلى واضحة بتناسقه وتوازنه العجيب في كل شئ . مثل قوله – تعالى –: ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴾[1]. يقول عفيف طبارة في كتابه روح الدين الإسلامي: (فإن علماء الكون الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين ، وكذلك تختلف نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، وهذه مسألة لم يكن شئ منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر) . ونضرب مثلاً على ذلك اختلاف موازين ونسب العناصر الداخلة في تكوين البصل عن الموازين ونسب العناصر الداخلة في الثوم وكذلك بقية النباتات .

ولو نظرنا إلى الزوجية في آلاف الأنواع من النباتات ، ونضرب مثلاً على ذلك حبوب اللقاح لعضو التذكير في

---

(١) سورة الحجر: ١٩.

نبات الباقلاء مع بويضات عضو التأنيث ، والزوجية عند البشر والحيوان وأشياء أخرى كثيرة بما يتلاءم ويتناسب مع النوع نفسه بموازنة دقيقة لسجدت العقول لله – جل جلاله – قبل الأبدان . قال – تعالى –: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1]. ولعلمت النفوس وتحققت بأن توازن نسب العناصر الداخلة في الماء والهواء وكل شئ بمقادير دقيقة تدحض المصادفة ، وأن الموزونات بهذه الأعداد الهائلة هي من آيات رب العالمين ، وأن الخلل فيها يؤدي إلى اضطراب الحياة وهلاك المخلوقات . قال – سبحانه –: ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾[2]. وفي حديث للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – قوله عن الله – عز وجل –: (وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع) [صحيح البخاري] . وهذا تمثيل رائع لموازنة إنزال مقادير الأرزاق لجميع المخلوقات ، وموازنة كل شئ في هذا الكون، وإننا نتساءل هل يستطيع الكفار أن يأتوا بمثل علمي

---

(١) سورة يس: ٣٦.

(٢) سورة الرعد: ٨.

واحد على إلحادهم أمام هذا الكم الهائل للأدلة العلمية الدالة على قوة وعظمة رب العالمين ؟

أما موازين العدل المطلق في يوم القيامة فإنها دقيقة جداً، فمن رجحت كفة أقواله وأعماله بالإيمان وكثرة الحسنات فأولئك هم الناجحون والفائزون ، ومن خفت موازينه فأولئك هم الساقطون والخاسرون وذلك لقوله – تعالى –: ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾[1]. وقوله أيضاً: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾[2]. وهذه الموازين يصفها الله – جل جلاله – بالعدل المطلق ، والدقة التي لا تظلم أي إنسان ، على عادة القرآن الكريم في تمثيل الأحداث بأشياء محسوسة تزن مثقال حبة من خردل حيث تتصف بخفتها ، والتي جاء ذكرها مرتين في القرآن الكريم. وإن الله – جل وعلا – يزن أقوال

---

(١) سورة الأعراف: ٨-٩.

(٢) سورة الأنبياء: ٤٧.

وأعمال الإنسان مهما كانت ، فحركة الأعين الخائنة بمسارقتها النظر ولفتتها السريعة إلى محارم الناس فإن الله – عز وجل – عالم بها ، وكذلك الأسرار المستورة في الصدور يخبرنا بها يوم القيامة في موازين دقيقة وهو يقضي بالحق فلا يظلم أحداً . قال – سبحانه –: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾[1]. ومن يتطلع إلى موعظة لقمان الحكيم لولده كما قال – تعالى – على لسانه: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾[2]. وهذا التمثيل الرائع يمثل حسنة الإنسان أو خطيئته مهما كانت صغيرة حتى وإن كانت في زنة مثقال حبة من خردل في جوف الصخرة الصماء ، ولو قسمنا كتلة مثقال حبة الخردل على كتلة أي صخرة لكانت زنة هذه الحسنة أو الخطيئة قريباً من الصفر . فكيف إذا تم تقسيمها على كتلة الأرض ؟ وهو وصف رهيب في كيفية محاسبة الله – عز وجل – عباده يوم القيامة ولا يعلم كل الموازين

---

(١) سورة غافر: ١٩.

(٢) سورة لقمان: ١٦.

بهذا الحاسوب الدقيق إلا الله – جل جلاله – لصعوبة الموضوع حيث تقف علوم البشر عاجزة أمام موازين الله – جل وعلا – لثوابه وعقابه في الدنيا والآخرة للناس أجمعين.

أما المعلوم من هذه الموازين فإن كثرة الحسنات ، هي السبب في سعادة المجتمعات وإن لها وزناً يوم القيامة وأهمها توحيد الخالق لثقله في الميزان . قال النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير) [صحيح البخاري] . وكذلك كثرة التسبيح لينسجم الإنسان مع تسبيح كل شئ في هذا الوجود . قال النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –: (سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضا نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته) [صحيح مسلم] .

أما كثرة السيئات والذنوب وتقبلها في المجتمعات ، مثل القتل بدون ذنب والسرقة وشرب الخمور والزنا وموالاة أعداء الإسلام والتعدي على حقوق الناس في نظام حصولهم على حاجياتهم وغيرها ، فإنها تؤدي إلى معيشة قاسية في الدنيا وعقوبات في الآخرة . قال – سبحانه –: ﴿ **وَالَّذِينَ**

كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[1]. وقد جعل الله – تعالى – مغفرة وموازنة لهذه الذنوب وهي الاستغفار والتوبة .

أما عن كفة ميزان أعمال الكفار في يوم القيامة وإن كانت مصحوبة بأعمال بر ، مثل بناء المستشفيات وإطعام المساكين وغيرها من الأعمال الحسنة ، فلا قيمة لها لأنها لم تكن خالصة لوجه الله – عز وجل – فإنه يحبط هذه الأعمال بسبب كفرهم وجحودهم بنعمه التي لا يمكن إحصاؤها لكثرتها مقارنة ببعض أعمال البر عندهم . قال – سبحانه –: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً** ﴾[2]. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ميزان الكافر: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) [صحيح البخاري]. وهذا هو تفسير قوله – تعالى –: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) سورة يونس: ٢٧.

(٢) سورة الفرقان: ٢٣.

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾[1].

وفي هذا المقام لابد أن نذكر قول النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ونصحه للبشرية جمعاء في هذا الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان وختم البخاري – رحمه الله – صحيحه به لأهميته في ثقل موازين يوم القيامة ، وهو تسبيح الله – عز وجل – وحمده وذلك لسهولة جريانها على اللسان وأن حركته جاءت متوازنة مع تسبيح الطير والذرات وكل شئ في هذا الكون لرب العالمين: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) :

ثانيهما: الموازين البشرية الدنيوية

وهي نوعان لوزن الأشياء والعدل بين الناس:

أما في خصوص موازين الأشياء كقوله – جل وعلا –: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[2]. أهلك الله

---

(١) سورة الكهف: ١٠٥.

(٢) سورة هود: ٨٤.

– عز وجل – قوم النبي شعيب – عليه السلام – لإنقاصهم المكيال والميزان ، وقد ذكر المكيال والميزان بعد قاعدة التوحيد لأهميتهما في المعاملات وأن الغش فيهما يؤدي إلى الفساد وبخس الحقوق واضطراب حياة الناس .

وقال – سبحانه –: ﴿ **وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾[1]. أي أن الله – تعالى – بلغ النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بالمحرمات ، ومنها الذين يغشون في المكيال والميزان ويتسببون في إزالة النعم وهم المطففون . وقد ذكر الله – جل جلاله – أن العدل بالنسبة لهذه الموازين هو على قدر طاقة الإنسان ، وتوجد منها في الوقت الحاضر أنواع متعددة لقياس الأشياء ، مثل المستعملة في الأسواق أو في الفحوصات المختبرية للمواد الإنشائية وغيرها ، وهي ذات سعات مختلفة في الكتلة أو الحساسية وتحتاج إلى تصحيح الانحراف إن وجد ومعايرة دورية لقسم منها وبموجب مواصفات محددة . وقد جاء الكيل والمكيال في القرآن الكريم عموماً للطعام وللإشارة إلى القيمة

---

(١) سورة الأنعام: ١٥٢.

الحجمية باستعمال الأوعية مثل صاع الحبوب . أما الميزان فهو يستعمل لقياس كتلة الأجسام مثل الكيلو غرام أو نحوه .

أما في مجال موازين العدل البشرية . نذكر قوله – سبحانه –: ﴿ **وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ** ﴾[1]. يقول صاحب الظلال: (وهذه أعم من المكيلات والموزونات فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع) . أي لا تنقصوهم من حقوقهم شيئاً . وقال – تعالى – في سورتي الإسراء والشعراء: ﴿ **وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ . يقول صاحب معجم لسان العرب: (والقسط العدل ويقال أقسط وقسط إذا عدل والقسطاس أعدل الموازين وأقومها وهو ميزان العدل) . ويقول صاحب تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: (أي الميزان السوي العدل) . وهذا الميزان هو الذي يجعل المسلمين يتسامون ويتسامحون ويتسمون بضبط النفس بل يعدلون في الحكم حتى مع الذين يكرهون ويبغضون أعمالهم من الكفار ، وهذه قمة عليا في الموازين البشرية قلّما توجد في عقائد أو أنظمة الحكم في هذه الأرض والتي تكفل العدل حتى مع الأعداء . لذلك فإن هذه المقومات

---

(١) سورة هود: ٨٥.

عند المسلمين تجعل ميزانهم الذي يرسم أو يعلق في واجهات محاكم العدل عندهم ، تمثل الدين العالمي القيادي الذي يتكفل نظامه بالعدل بين جميع البشر وأن يتمتعوا في ظله بالأمان والاستقرار . بالرغم من العراقيل والإعلام الماكر والموازين الخاطئة عند بعض الغربيين لانحراف فطرتهم ، والتي تبرر الحروب على المسلمين والاعتداء عليهم والقوانين الجائرة ضدهم بادعاءات شتى ومقاييس لا صحة لها تبخس حقوقهم . لذلك فإن ميزان الإسلام العظيم يشهد بالعدل وهو الغالب بإذن الله – عز وجل – لقيادة البشرية وذلك لانسجامه مع الفطرة واستجابة لقوله – تعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة: ٨.

الحقيقة الثالثة عشر:مفهوم الأزواج في القرآن

إن الحكمة الإلهية في تكرار ذكر حقائق عن الأزواج في القرآن الكريم، يراد بها شئ عظيم وهو هداية الناس للإسلام، وكونها دليل ساطع ظاهر للعيان منذ خلق الله -عز وجل- البشرية، وجاءت لتنفي نفياً قاطعاً كل النظريات الخاطئة التي قالت بالصدفة في نشوء الحياة، ولترمي قسماً من الناس من الذين آمنوا بالباطل وكفروا في النار، نتيجة لعدم تفكرهم وعنادهم وجهلهم بحقائق هذه الزوجية، فهل يعقل أن الصدفة خلقت وطورت وتوصلت إلى تكوين ذكر (فحل) النخيل وهو الذي يحمل أعضاء التذكير المسماة بالطلع؟ وهل يعقل أن الاتفاقات والمصادفات كونت أنثى النخيل، وهي جنس آخر تحمل أعضاء التأنيث؟ وهل يعقل أن وضع طلع الذكر داخل عنقود الأزهار الأنثوية بقصد تكوين التمر صار من دون إرادة؟ والأدهى من ذلك هل تعقل الصدفة في آلاف الأمثلة من الأدلة العلمية الكائنة في الزوجية، سواءً أكانت في الإنسان أو النبات أو الحيوان أو

غير ذلك؟ إن موضوع وظائف وحياة الأزواج واسع جداً ولكننا سنسلط الضوء على عشرة مواضيع قرآنية نافعة:

أولها: إن النفس البشرية كما يقول صاحب الظلال: (هي نفس واحدة في طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى، وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها. وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان. ووظيفة الزوجية في تكوينه). قال -عز وجل-: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾[1].

ثانيها: إن خروج الزوجين آدم وحواء من الجنة كان بسبب وساوس الشيطان لهما بالأكل من الشجرة المنهي عنها بغية الخلود والملك الذي لا يبلى. لقوله -تعالى-: ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

ثالثها: حدوث الطوفان بعد أجيال عديدة في عصر النبي نوح -عليه السلام- وتم حمل المخلوقات في السفينة على شكل زوجين وذلك لأهمية التكاثر. لقوله -سبحانه-:

---

(١) الأعراف: ١٨٩.

(٢) الأعراف: ١٩.

﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾(١).

رابعها: إن العموم في الخطاب القرآني هو الترغيب في الزواج والحض عليه وهذه سنة المرسلين. قال -سبحانه-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾(٢). ويتجلى ذلك واضحاً في كثير من المرسلين الذين لهم أزواجاً وذرية باستثناء البعض منهم، وذلك لحكمة يريدها الله -عز وجل- مثل النبي عيسى -عليه السلام- الذي ولد بمعجزة إلهية ولم تكن له أزواجاً وذرية.

خامسها: أخبرنا الله -عز وجل- عن معجزات إلهية بشأن الزوجية. مثل إجابة الله -تعالى- دعاء زكريا -عليه السلام- حيث جعل زوجته ولوداً بعد أن كانت عاقراً ورزقه بيحيى -عليه السلام- لقوله -تعالى-: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾(٣).

---

(١) هود: ٤٠.

(٢) الرعد: ٣٨.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

سادسها: ذكر القرآن الكريم نصائح نافعة للناس وخاصة للمتزوجين منهم. مثل إخبار الله-عز وجل-أن الزواج المثالي يعتمد على ثلاثة أسس وهي السكن والمحبة والرحمة بين الزوجين وفيه عبر عظيمة لقوله: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(١). وأنبأنا -سبحانه- أن السحر لا يكون سبباً في التفريق بين الزوجين بعد أن كانت المودة والمحبة بينهما، ولا يضر أحداً إلا إذا شاء الله، لأنهم آثروا السحر على كتاب الله لقوله: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**﴾(٢). وحثنا -تعالى- على الالتزام بتطبيق الميراث فيما يخص الزوج والزوجة فهما يورثان لأهمية آصرة الزواج عند الله -عز وجل- لقوله: ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ** ...الآية﴾(٣). وحذرنا -تعالى- من أخذ شئ من مهر الزوجة بعد الطلاق

---

(١) سورة الروم: ٢١.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) النساء:١٢.

ولو كان مهراً كبيراً ومن يأخذ قليلاً من ذلك المهر فقد جاء ظلماً مبيناً لقوله: ﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً**﴾[1]. وأخبرنا -جل وعلا- عدم إيثار الذكور على جنس الأزواج وهن الإناث في الأكل والله هو صاحب الحاكمية الشرعية لقوله: ﴿ **وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا**﴾[2]. وبلغنا -جل وعلا- عدم النظر إلى ما يتمتع به الأزواج الكفار من نعيم الحياة الدنيا وزينتها الفانية، وذلك لابتلائهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب الأليم لقوله: ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[3]. وأعلمنا -تعالى- أن العموم في العلاقات الزوجية عند المسلمين هو الشرف والبركة وإن حدثت تُهم بين الزوجين، فإن الستر هو المطلوب ورب اتخاذ قرار صائب شرعي بالهدوء أبلغ من الفضيحة لقوله:

---

(١) النساء: ٢٠.

(٢) الأنعام: ١٣٩.

(٣) طه: ١٣١.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ... ﴾[1]. ووبخ -عز وجل- قوم لوط الذين مارسوا اللواط وتركوا ما أباح الله -سبحانه- من الزوجات، وقد دلت الحقائق أن هذا الفعل الشنيع يسبب كثيراً من الأمراض الخطرة وخاصة الايدز، وهوجريمة مهلكة للعاملين به في الدنيا والآخرة لقوله: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ* وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[2]. واستمع الله -تعالى- لشكوى زوجة حاورت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتضرعت إلى الله -عز وجل- في تفريج كربتها عن مظاهرة زوجها لها، والمظاهر يقول قولاً منكراً لأنه يجعل امرأته كأمه، فلا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً شرعياً آخر. وهذا باطل في دين الإسلام لقوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي

---

(١) النور: ٦-١٠.

(٢) الشعراء:١٦٥-١٦٦.

إِلَى اللَّهِ... ﴾[1]. وتحذير للمؤمنين من أن بعض الأزواج يصدونهم عن عمل الخير فلا تستجيبوا لهذا الأمر بفعل الروابط القوية بين الزوجين لقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾[2].

سابعها: ذكر الله -عز وجل- أخبار مهمة عن زوجات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[3]. أي زوجات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - الطاهرات أمهات المؤمنين ووجوب تقديرهن واحترامهن وتحريم نكاحهن. وقوله: ﴿ **فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾[4]. وهذا يخص زواج النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - من زينب ابنة عمته - رضي الله عنها - وهي مطلقة زيد -رضي الله عنه- الذي تبناه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو حكم

---

(١) المجادلة:١-٤.

(٢) التغابن-١٤.

(٣) الأحزاب:٦.

(٤) الأحزاب: ٣٧.

شرعه الله -تعالى- لكي لا يظن أن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها. وقوله: ﴿ **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً** ﴾[1]. وهذه الآية تتناول ما يريده الله -عز وجل- من تدبير بشأن الحياة الزوجية للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث لا يحل له الزواج من بعد نسائه اللواتي في عصمته ولا يحل له أن يطلق أي زوجة منهن وينكح مكانها أخرى وهذا العدد يكفي لنشر جوانب مهمة من السنة تخص حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتصب في مصلحة الدعوة الإسلامية. وقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً** ﴾[2]. أي لا يجوز للمسلمين أن يتزوجوا زوجات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد وفاته أبداً، وهن بمنزلة أمهاتهم، وفي هذا تعظيم لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإيجاب حرمته في أزواجه حياً وميتاً. وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**

---

(١) الأحزاب: ٥٢.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(١). أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات، وبناتك الكريمات، وسائر نساء المؤمنين يلبسن الجلباب الواسع الذي يستر محاسنهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، لإزالة أسباب الفتنة وتنظيم الحياة الاجتماعية.

ثامنها: إن الكفار وزوجاتهم الكافرات ومن على شاكلتهم في نار جهنم يتذوقون الماء الحار وما يسيل من صديد أهل النار وأصناف أخرى من مثل هذا العذاب. لقوله -سبحانه-: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾(٢). وقوله: ﴿ **هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ* وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾(٣).

---

(١) الأحزاب: ٥٩.

(٢) الصافات: ٢٢-٢٣.

(٣) ص:٥٧- ٥٨.

أما المؤمنون وزوجاتهم المؤمنات ومن هم على منهجهم فهم يتمتعون في الجنة. قال -عز وجل-: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ**﴾[1].

تاسعها: ولأهمية وظائف الزوجية في التكاثر كررها الله -جل وعلا- في خلق الإنسان والحيوان والنبات وكل شئ ليلفت أنظار الناس إلى كونه الخالق الوحيد. مثل قوله بشأن الإنسان: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً**﴾[2]. وقوله عن الأنعام: ﴿ **وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**﴾[3]. وقوله عن النبات: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾[4]. وقوله عن العموم في الزوجية: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[5].

عاشرها: ولأهمية موضوع الزوجية في هداية الناس للإسلام -وخاصة العلماء-. أراد الله بها أيضاً حقائق علمية.

---

(١) الزخرف: ٧٠.

(٢) فاطر: ١١.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) الشعراء: ٧.

(٥) الذاريات: ٤٩.

مثل قوله -تعالى-: ﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً**﴾[1]. ويقصد بها كما جاء في كتاب الموضوعات الطبية في القرآن الكريم: (زيادة الحيطة في استبراء الرحم). وقوله: ﴿ **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[2]. وهذه حقيقة علمية تخص ظاهرة اهتزاز التربة الصالحة للزراعة عند نزول الأمطار وإنبات آلاف الأنواع من النباتات على شكل أزواج بما يتلاءم ويتلاقح مع النوع نفسه. وقوله: ﴿ **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى**﴾[3]. يقول الدكتور ناطق النعيمي:(والمني الذي يمنى هو الذي يقرر ذكورة أم أنوثة الجنين في مستوى عالم النطف).

وفي الختام يتبين أن الزوجية موزونة عند البشر والحيوان والنبات وأشياء أخرى، بما يتلاءم ويتناسب مع النوع نفسه بمقاييس دقيقة، وتدحض المصادفة في الخلق، وأن الخلل فيها يؤدي إلى اضطراب الحياة وهلاك

---

(١) البقرة: ٢٣٤.

(٢) الحج: ٥.

(٣) القيامة: ٣٩.

المخلوقات، لأن الزوجية هي الوسيلة الوحيدة لبقائها واستمرارها، وهي من أعظم الحقائق العلمية الدالة على قوة وعظمة رب العالمين. ولا يسعنا إلا أن نقف عندها بإجلال للخالق الواحد ونقول: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

---

(١) يس: ٣٦.

الحقيقة الرابعة عشر: أول زراعة قلب في التاريخ ومدلولاتها

قلب البدن عضو عضلي أجوف يوجد في وسط التجويف الصدري، وهو مركز الحياة البشرية النابض. لقد كان الأطباء حتى نهايات القرن العشرين يعدون قلب البدن مجرد مضخة للدم ترتبط بالدماغ عن طريق أعصاب ودية ولا ودية. وقد أضاف العلم الحديث بعض المعلومات الملفتة للنظر مثل الهوايات الشخصية التي يتأثر بها قلب البدن حيث بثت قناة الجزيرة الفضائية يوم (١٠-١-٢٠٠٧) برنامجاً اسمه -القلب مستودع الذكريات-شارك فيه أطباء متخصصون في الجراحة القلبية وجراحة الدماغ والأعصاب بينوا: (إن زراعة قلوب بشرية جديدة لمرضى متلقين لهذه القلوب أثبتت أن هؤلاء المرضى أصبحوا يعانون من بعض التغييرات في شخصياتهم مأخوذة من شخصيات الواهبين -المتبرعين- بهذه القلوب ممن ماتت أدمغتهم في حوادث مثل اصطدام السيارات أو اطلاقات للرصاص في الرأس، حيث قالت إحدى المتلقيات: إن صاحب قلبها يهوى الملاكمة وأكل الفلفل وأصبحت هي أيضاً تحب أكل الفلفل الذي لم

تكن تحبه من قبل إجراء عملية القلب المزروع لها، وكذلك أصبحت تشاهد الملاكمة التي لم تكن ترغب مشاهدتها من قبل، وآخر أصبح يتسلق الجبال ويربي الحيوانات التي لم يكن يهتم بها قبل إجراء العملية، وامرأة زرع لها قلب رجل مغامر فأصبحت هي أيضاً تهوى المغامرة. وهناك قصص حزينة تثير الأحاسيس، مثل زيارة أم تبرعت بقلب ابنها الذي مات دماغه للشخص المتلقي تسأله عن حاله وما ظهر عليه من شخصية ابنها، ورجل يريد أن يصغي لقلب أخيه المزروع في شخص آخر. وقد أجمع المتلقون لهذه القلوب أن تغيراً طفيفاً ما بين [٥-١٠ بالمئة] حدث في شخصياتهم وأن بعض أحاسيس وهوايات شخص آخر تحل فيهم بعد زراعة هذه القلوب الجديدة. وقد ذكر الدكتور جاك كوبلاند وهو أخصائي جراحة قلبية:- إن القلب عضو ذو حس وتأثير كبير-. وذكر الدكتور برولين ماكارتي وهو أيضاً أخصائي جراحة قلبية:- إنه يوجد لدى القلب جهاز عصبي معقد هو الذي يجعل القلب ينبض ويمكنه أن يسترجع الذكريات بعد زراعة القلب-. وقد ذكر الباحثون في معهد بارفان: -إن القلب يرسل معلومات إلى الدماغ-). ويلاحظ

أن هناك تغيراً بسيطاً حدث للمرضى المتلقين لهذه القلوب يخص بعض الهوايات والأحاسيس إلا أنه لا يمس العقيدة لحكمة يريدها الله -عز وجل-. وتتميز عمليات زرع القلوب البشرية بقلتها في العصر الحاضر وذلك لاحتياج جسم المتلقي لهذا القلب الجديد لأدوية خافضة للمناعة، بسبب محاربة الجسم لأي نسيج غريب يدخل عليه، إضافة إلى أن قلوب المتبرعين تبقى حية عدة ساعات في التبريد وانتظار الفرصة المناسبة لزرعها في قلوب المتلقين، وما تحتاجه من إجراءات تنظيمية بصدد هذه العمليات وكذلك التعقيدات الأخرى. ولعل السنة النبوية قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أشارت إلى أن أول عملية زرع قلب أجريت في التاريخ هي لقلب سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وتمت بنفس قلبه (وهو ابن خمس سنين كما ذكر صاحب روح البيان).

عن أنس بن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: (أتاه جبريل-عليه السلام-وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لامه ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون

إلى أمه يعني ظئره -المرضعة- فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) [صحيح مسلم]. وتكررت العملية ليلة أسري به قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم-: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة بين الرجلين فأتيت فانطلق بي فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة فقلت للذي معي ما يعني قال إلى أسفل بطنه فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة) [صحيح مسلم]. فكل شئ قدّره الله -تعالى- للنبي الكريم يؤدي إلى حكمة ومقاصد نبيلة. يقول صاحب صفوة التفاسير عن قوله -جل وعلا-: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ (أي شرحنا لك صدرك يا محمد بالهدى والإيمان ونور القرآن وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره). ويقول صاحب مختصر تفسير ابن كثير: (يعني قد شرحنا لك صدرك أي نورناه، وقيل: شرح صدره ليلة الإسراء، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء ولكن لا منافاة، فإن من جملة شرح صدره الحسي الشرح المعنوي أيضاً). لذلك فإن عملية زرع قلب النبي -

صلى الله عليه وسلم – تتميز بخمسة أمور:

أولها: إنها أجريت على يد ملك﴿ **شَدِيدُ الْقُوَى** ﴾وهو جبريل –عليه السلام– وقد عاش بعد أول عملية ثمان وخمسين سنة، وهي مدة مديدة لأن الزراعة تمت بنفس قلبه وليس نسيج غريب عنه والله أعلم.

ثانيها: لقد تكررت عملية زرع قلبه – صلى الله عليه وسلم – وكل مرة يراد بها شئ عظيم. يقول ابن حجر في فتح الباري: (شق صدره فأخرج علقة فقال هذا حظ الشيطان منك وكان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الاسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه صلى الله عليه وسلم).

ثالثها: إن قلب بدنه استخرج من جوف صدره ونقي من القساوة ووسوسة الشيطان ثم جمعه ثم أعاد زراعته في مكانه وأن أثر الإبرة موجود في صدره.

رابعها: مُلأ قلب الروح للرسول – صلى الله عليه وسلم – بالإيمان والحكمة. قال بن أبي جمرة: (الحكمة في شق قلبه مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيمانا وحكمة بغير شق، الزيادة في قوة اليقين لأنه أعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك).

خامسها: لتكون طريق هداية للناس وخاصة بعد أن تبين إمكانية زرع القلوب في العصر الحاضر. ونتواصل في ذكر معلومات عن قلب الروح أهمها أنه هو الذي يقلب الأمور، ويتفاعل مع مراكز التفكير في الدماغ، فإذا كان طاهراً سليماً من الشرك والنفاق يتخذ قرار التوحيد لقوله –تعالى–: ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1]. وإذا كان مريضاً يتخذ القرار بالشرك والنفاق يقول الله –عز وجل– للرسول – صلى الله عليه وسلم –: ﴿ **رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[2]. ولعل المقصود هنا بالقلب السليم أو الذي فيه مرض ليس بقلب البدن، لأن هذا القلب ممكن أن يزرع في جوف إنسان آخر ولا يؤثر في

---

(١) الشعراء:٨٩.

(٢) محمد:٢٠.

عقيدته، وكذلك يوجد من المشركين من تكون قلوب أبدانهم سالمة من الأمراض العضوية، ومن المؤمنين عكس ذلك. يقول الشيخ الزنداني في محاضرة قيمة له عن شرح قوله – تعالى–: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1] (إن القلوب المقصودة في الآية والله أعلم، هي العلاقة بين قلب البدن وقلب الروح وكل الدلائل تدل على أن القلب المؤثر والمهيمن هو قلب الروح وأن محل هذه القلوب في الصدور وليس في الأدمغة). ويقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة) [متفق عليه]. يقول النووي: (الأمانة هي عين الإيمان فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف). وبالرغم من أن ماهية الروح وحقيقتها هي من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا الله –عز وجل– لقوله: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[2]. إلا أنها نفخة من روح الله في جسد الإنسان لقوله –تعالى–: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن**

---

(١) سورة الحج:٤٦.

(٢) الإسراء: ٨٥.

رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾[1]، وإن وجودها محسوس، فالروح تجوع طلباً للاعتقاد فإذا كانت تغذيتها بذكر الله اطمأنت، وهناك حقائق وأدلة عن مئات الملايين من المسلمين ممن يتخذون القرار الصحيح وهو السجود لله -تعالى-. وإذا كانت تغذيتها فاسدة بإشراك مخلوقات أخرى مع الله -عز وجل- في العبادة، فهناك حقائق وأدلة عن مئات الملايين من البشر وهم يقررون الخشوع لبعض الحيوانات أو التماثيل، ولو كان تمحيص القرار بأدمغتهم فقط لما جعلتهم عقولهم يسجدون للتماثيل والبقر. أما عدم تغذية الروح كما يحصل عند ملايين البشر ممن ينشغلون بالعمل صباحاً وبشرب الخمر مساءً وفي العطل، فهو يؤدي بهم إلى الكآبة وأحياناً إلى الانتحار، وقد ثبت علمياً أن الروحانيات والإيمان تقلل الاكتئاب وتقوي الحالة النفسية. قال -سبحانه-: ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]. وبعد كل هذه الأدلة والحقائق نسمع بعض الأطباء يقولون أنهم متخصصون بجزء معين من الجسم ويقللون من أهمية

---

(١) الحجر:٢٩.

(٢) الرعد:٢٨.

الروح، فمثله كمثل الذي يرى الضوء ساطعاً في الغرفة ولا يعلم عن وجود مصدر قوة أو تيار كهربائي في السلك المسبب لهذا الضوء لعدم مشاهدته هذا التأثير. يقول -تعالى-بشأن أرواح المتبعين لفرعون: ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[1]. هذا بصدد عذاب أرواح الكافرين من آل فرعون بعد موتهم، حيث تعرض أرواحهم على النار في عالم البرزخ وهو منزل الروح للفترة ما بين مفارقة الدنيا واستقبال الآخرة، ولعل ذلك لمسؤولية قلوب هذه الأرواح في اتخاذ قرارات خاطئة في الحياة الدنيا. وكذلك تنعم أرواح الشهداء بعرضها على الجنة لمسؤولية قلوب هذه الأرواح في اتخاذ قرارات الشهادة الصحيحة في الحياة الدنيا والله أعلم. ثبت في السنة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل) [صحيح مسلم]. قال القاضي عياض: (إن الأرواح باقية لا تفنى فينعم المحسن

---

(١) غافر:٤٥-٤٦.

ويعذب المسئ). لذلك فإن أجزاء الجسد لعامة الناس بعد الموت ترجع إلى أصل خلقها من التراب مثل الاذنين والعينين والفؤاد ولا تتعذب ببرودة وسخونة المكان المدفونة فيه وهي تنتظر دورها في البعث من القبور ومسؤوليتها يوم القيامة لقوله -تعالى-: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾(١). جاء في المؤتمر العالمي للإعجاز العلمي في القرآن والسنة لسنة-٢٠٠٤ م-: (إن مكان الفؤاد في عمق المخ وهو يمثل العواطف والحب والشعور والأحاسيس وهذه أصبحت حقيقة علمية). أما الروح صاحبة القلب المهيمن في اتخاذ قرار التوحيد أو الشرك فإنها تبقى في البرزخ تنعم بعرضها على الجنة إذا كانت مؤمنة وتعذب بعرضها على النار إذا كانت كافرة تنتظر دورها فإذا جاء يوم القيامة جمعت أجزاء الجسم للموتى ودخلت فيها الروح ﴿ **فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ هناك يكون النعيم الأكبر بدخول المؤمنين الجنة ويكون العذاب الأكبر بدخول الكافرين النار. يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى

---

(١) الإسراء:٣٦.

صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بأصابعه إلى صدره) [صحيح مسلم]. وبعد هذا الشرح الموجز نذكر بعض آيات القرآن الكريم التي تدلل على هيمنة قرارات قلب الروح، مثل القرار في قلوب المنافقين لقوله -سبحانه-: ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾[1]. وقرار الإيمان في قلوب المهاجرين والأنصار لقوله: ﴿ **أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ**﴾[2]. وإن قرار التوحيد يتخذ في القلوب لقوله عن أصحاب الكهف: ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[3]. ويؤكد الله -جل وعلا- أن القرار هو قرار القلب لقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**﴾[4]. وإن قرار القلب هو تبني عقيدة واحدة في صدر الإنسان فأما الإيمان وأما الكفر لقوله: ﴿ **مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾[5].

---

(١) التوبة:٧٧.

(٢) المجادلة:٢٢.

(٣) الكهف:١٤.

(٤) الحج:٤٦.

(٥) الأحزاب:٤.

وفي الختام نبين أن الله -عز وجل- يعلم ما في هذه القلوب لقوله: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[1]. وهو يتعامل معها ويصحح اتجاهها فيجعلها تؤمن إذا كانت تريد الخير والهدى لقوله -سبحانه-: ﴿ **إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً**﴾[2]. ويجعلها تميل عن الحق وتنحرف إلى الباطل ثم يختم عليها إذا كانت تريد الفسوق والخروج عن طاعة الله -عز وجل- لقوله: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[3]. فمن وجد الخير في قرارات قلبه فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

---

(١) الأحزاب:٥١.

(٢) الأنفال:٧٠.

(٣) الصف:٥.

الحقيقة الخامسة عشر: حقيقة البعث من القبور في القرآن والسنة

لقد ادعى الكفار على مر الزمن إنكارهم للبعث من القبور بعد موتهم . قال – تعالى –: ﴿ **بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ* قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾[1]. إن الشيطان يزين لهم أعمالهم ويغريهم بالحياة الدنيا ومباهجها بالرغم من قصر مدتها وفناء لذتها ويلهيهم عن ذكر الآخرة . قال – سبحانه –: ﴿ **وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾[2]. وهذا الاعتراض منشؤه غفلة الإنسان الكافر وجهله بحقيقة البعث من القبور ، لذلك يذكره الله – عز وجل – في آيات كثيرة بالذي أصعب منه بالقياس البشري وهو إعجاز خلقه كقوله – جل وعلا –: ﴿ **وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً* أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً** ﴾[3]. أي أن الإنسان لم يكن شيئا ثم خلقه الله – جل

---

(١) سورة المؤمنون: ٨١-٨٢.

(٢) سورة الأنعام: ٢٩.

(٣) سورة مريم: ٦٦-٦٧.

جلاله – من نطفة لا ترى بالعين المجردة ، ولو قسمنا حجمها الحقيقي على حجم جسمه الحالي لأصبحت النتيجة قريبة من الصفر ، ولو تذكر الإنسان هذه الحقيقة ومراحل تطور النطفة لما أنكر البعث من القبور وخاصم رب العالمين . قال – سبحانه –: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾(١).

ومن المعلوم أن هؤلاء الكفار لا يوجد لهم اعتراض واحد على الخلق في القرآن الكريم بالرغم من كثرة الآيات التي تخص كلمة الخلق ومشتقاتها لأنهم يعلمونه . قال – تعالى –: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾(٢).

وفي عرف الإنسان أن البعث من القبور أهون وأيسر من الخلق والابتداء . قال – عز وجل –: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾(٣). يذكر صاحب صفوة التفاسير عن مجاهد: (إن الإعادة أهون عليه من البداءة ،

---

(١) سورة يس: ٧٧.

(٢) سورة الزخرف: ٨٧.

(٣) سورة الروم: ٢٧.

والبداءة عليه هيّنة) . وكذلك أكد النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – هذه الحقيقة فقال: (قال الله – تعالى – كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ... الحديث) . [صحيح البخاري] . يقول ابن حجر في فتح الباري: (وإعادته أهون عليه من بدئه وكل على الله هين لأنه ابتدئ نطفة ثم علقة ثم مضغة والإعادة أن يقول له كن فيكون) . ويقول الله – عز وجل –: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى* أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى** ﴾(١).

ومن المعلوم في مجال خلق الإنسان كما تبين الحقائق العلمية أنه لم يكن موجوداً في الأرض لا بجسده ولا بروحه قبل التزاوج والإخصاب ، ثم بعد حصوله وتركيب الجسد من عجب الذنب كما أخبر الرسول وهذه من معجزاته – صلى الله عليه وسلم –: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا

---

(١) سورة القيامة: ٣٦-٤٠.

عجب الذنب منه خلق وفيه يركب) [صحيح مسلم] . يقول الدكتور محمد علي البار في مجلة الإعجاز – العدد الأول لسنة ١٩٩٥ ميلادية –: (فقد أوضح علم الأجنة الحديث ، أن الإنسان يتكون وينشأ من عجب الذنب ويدعونه – الشريط الأولي – ، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام ، والتخصص ، والتمايز ، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية ، ويندثر هذا الشريط الأولي إلا جزءاً يسيراً منه لا يرى بالعين المجردة ، يبقى في المنطقة العصعصية التي يتكون فيها عظم الذنب – عظم العصعص – ، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق – صلى الله عليه وسلم –) . وبذلك يتكون الجسد عن طريق تغذية الجنين من مواد عائدة في الأصل إلى الأرض ، والذي تتغذى بها أمه سواءً أكانت نباتية أو حيوانية إلا أنه توجد صعوبات تتحملها الأم أثناء فترة الحمل . قال – تعالى –: ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ** ﴾[1]. وكل مرحلة من مراحل الحمل تحتاج إلى رعاية رب العالمين وحفظه وإتقانه هذا الخلق

---

(١) سورة لقمان: ١٤.

بهذا الإعجاز العظيم، وخاصة غرابة ماء الرجل عن زوجته الذي يستوجب رفضه. يقول الدكتور السباعي في مجلة الفتوى – العدد ٧٠ لسنة ١٩٩٩ ميلادية –: (إن مشكلة الرفض تكمن في محاربة الجسم لأي نسيج غريب يدخل عليه وهي وظيفة أوكلها الله إلى الجهاز المناعي بالجسم ، وهنا أذكر إعجازاً كبيراً حارت الأطباء في فهمه إلى يومنا هذا ذلك هو استقرار الجنين في بطن أمه وهو جسم غريب عنها من الناحية المناعية وتلك معجزة إلهية تتحقق بتجاهل الجهاز المناعي للأم تجاه الجنين بأمر الله) . ويتجلى ذلك بزيادة حجم الرحم وهذه الرباطات العجيبة التي تحمي الجنين من الصدمات وتغذيته المدهشة وبقية الإعجاز الذي يرافق الحمل وتكوين الجسد . أما الروح فينفخها الملك في الجنين بإذن الله – جل وعلا – وهو في رحم أمه قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حديث جمع الخلق في بطن الأم الذي يرويه مسلم في صحيحه نقتطف منه: (ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح) . وهذا هو سر الحركة الميكانيكية في الجسم الحي وهكذا يتخلق الإنسان في أطوار تجعل العقول خاشعة لرب العالمين . قال – عز وجل –: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا**

الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(١).

ويتبين أن النفس البشرية المخلوقة من الجسد والروح موجودة وحقيقة ملموسة قبل الموت . قال – تعالى –: **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾**(٢).

أما بعد الموت فكل الذي يحصل أن هذه الروح تنفصل عن الجسد وتحفظ في عالم البرزخ تنتظر دورها في البعث. قال – سبحانه –: **﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾**(٣).

أما الجسد بعد الموت فيتحلل إلا عجم الذنب ، ويرجع إلى أصل خلقه من التراب ويحفظ في الأرض ينتظر أيضاً

---

(١) سورة المؤمنون: ١٢-١٤.

(٢) سورة الحجر: ٢٨-٢٩.

(٣) سورة المؤمنون: ١٠٠.

دوره في البعث . يقول العلماء: (إن عناصر جسم الإنسان في العموم هي من عناصر تربة الأرض) . وهذا معناه أن أجساد الموتى تتحلل وتكون ضمن مكونات التربة وأن الأرض محيط مناسب لها ورحم يتلاءم معها وليس غريباً عنها والله - عز وجل - يعلم أماكن انتشارها . قال - سبحانه -: ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴾[1]. وقال النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - في حديث يصف فيه جمع الله - جل جلاله - جسد رجل يسرف على نفسه بعد موته: (كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت قال يا رب خشيتك فغفر له وقال غيره مخافتك يا رب) [صحيح البخاري] . ونقتطف مما يقوله ابن حجر في فتح الباري: (والمعنى أن بعث يوم القيامة يكون الإنسان على هيئته يعرفه كل أحد) . وقال - تعالى -: ﴿ **أَيَحْسَبُ**

---

(١) سورة ق: ٤.

الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[1]. ويصف الرسول – صلى الله عليه وسلم – كيفية إنبات الأجساد يوم القيامة في حديث رواه مسلم في صحيحه نقتطف منه: (ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال وليس من الإنسان شئ إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) . أي أن الله – عز وجل – ينزل مطراً خاصاً فتتجمع الأجزاء البشرية المتفرقة من أجساد الموتى من الأرض وتبعث الحياة من جديد عن طريق بذرة لا تتلف ولا يضرها الحرق والسحق وهي عجم الذنب التي ينبت منها الجسد كما تنبت الأشجار من البذور المحفوظة والمحصنة في الأرض . قال – سبحانه –: ﴿ **وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** ﴾[2].

ذكر الشيخ عبد المجيد الزنداني في محاضرة قيمة أمام طلاب العلم قول العالم الأمريكي مارشال جونسون: (لقد درس علماء الكيمياء هذا الشئ ، فوجدوا أن أنسب مادة

---

(١) سورة القيامة: ٣-٤.

(٢) سورة الروم: ١٩.

يمكن أن تدب الحياة فيها هي الطين) . قال – تعالى –: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾[1]. أي المزيج الرخو اللزج من التراب والماء . وقال – سبحانه –: ﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾[2]. يقول صاحب مختصر تفسير ابن كثير: (زوجت الأرواح بالأبدان) . أي زوجت الأرواح المحفوظة في عالم البرزخ مع أجسادها بقدرة الله – عز وجل – ﴿ **فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾[3]. أي يوم القيامة ، عندها يكون حساب الإنسان سريعاً . قال – تعالى –: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾[4]. ولو نظر المستخدمون للحاسوب الإلكتروني وهو يتلقى هذا الكم الهائل من المعلومات ويظهر النتائج بسرعة ، فما بالهم بخالق الكون وهو يدقق أعمال الإنسان عن طريق الملكين المتلقيين اللذين يسجلان الحسنات والسيئات في الحياة الدنيا ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** ﴾[5]. ثم تظهر النتائج بسرعة مذهلة .

---

(١) سورة الصافات: ١١.

(٢) سورة التكوير: ٧.

(٣) سورة الزمر: ٦٨.

(٤) سورة إبراهيم: ٥١.

(٥) سورة ق: ١٧.

قال – سبحانه –: ﴿ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً** ﴾[1]. يقول صاحب صفوة التفاسير: (أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته) . عندها يكون حال الكفار في ذلك اليوم العصيب ولمسؤوليتهم عن جميع أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدنيا فإنهم أذلاء منقادون عاجزون عن الجواب . قال – عز وجل –: ﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ* مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ* بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴾[2]. أما حال المسلمين في يوم القيامة فإنهم مستبشرون لأن نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو الذي نزل على قلبه القرآن الكريم وصاحب الذكر المرفوع في الدنيا والمقام المحمود في الآخرة هو أول من يبعث من قبره الشريف وهو أول الشافعين . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع) [صحيح مسلم] .

---

(١) سورة الإسراء: ١٣.

(٢) سورة الصافات: ٢٤-٢٦.

وفي الختام نسأله – تعالى – التوفيق لتوضيح حقيقة سهولة بعث الناس من القبور ، لأن هذا الموضوع المهم يجعلني أقف قاصراً ومتحرجاً تصيبني الرهبة ، وأنا أقرأ سورة الرعد بمطارقها المخيفة وإيقاعاتها العجيبة وقول الله – عز وجل – عندما رأى تعجب خاتم النبيين سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – من جحود هؤلاء الكفار بنعم الله – تعالى – الكثيرة وعدم تفكرهم في هذا الكون العظيم سواء في سماواته المرفوعة بدون أعمدة وما فيها من آيات والأرض وما فيها من خيرات فقال له: إن الأعجب من ذلك كله يا محمد هو قول الكفار أئذا كنا ترابا أنبعث من جديد ، غافلين عن خلقهم من لا شئ في البداية حيث لم تكن الأرواح والأجساد . قال – سبحانه –: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ* وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ**

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الرعد: ٢-٥.

المحتـــويـــات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٣
تقديم	٥ ــ ١٢
المقدمة	١٣ ــ ١٤
موضوع البحث ومنهجه	١٥
الفصل الأول: حقائق إحصائية ١- ذكر نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعجزة الإحصائية	١٧ ــ ٢٧
٢- حقائق عن تميز إعجاز القرآن الكريم	٢٨ ــ ٣٧
الفصل الثاني: حقائق واقعية ١- حقائق عن ذكـــر الله - تعـــالى - و تسبيحه	٣٩ ــ ٥١
٢- لمحات عن مفهـــوم (القليـــل) فـــي القرآن والسنة	٥٢ ــ ٦٣
٣- القرآن والأسس	٦٤ ــ ٧٣
٤- مفهوم الرحم ومتعلقاته في الإسلام	٧٤ ــ ٨٢

٥- مفهوم المكر في القرآن الكريم	٨٣ ــ ٩٥
٦- منافع الأقليات الإسلامية	٩٦ ــ ١٠٥
٧- الميزات الجلية لعيدي المسلمين	١٠٦ ــ ١١٧
٨- مفهوم السكن في القرآن والسنة	١١٨ ــ ١٣٢
٩- الميزات الجلية في المساجد الإسلامية	١٣٣ ــ ١٤٧
١٠- الإسلام المنقذ من التطرف	١٤٨ ــ ١٥٣
١١- الإسلام الدين المهيمن في العالم	١٥٤ ــ ١٦٢
١٢- مقاصد الكتاب في القرآن	١٦٣ ــ ١٧١
١٣- أضواء على (الأنباء) في القرآن	١٧٢ ــ ١٨٢
١٤- مقاصد الكلام في القرآن	١٨٣ ــ ١٩٤
الفصل الثالث: حقائق علمية ١- القرآن وعلم ميكانيك التربة	١٩٥ ــ ٢٠٠
٢- القرآن وعلم الأرض	٢٠١ ــ ٢٠٩
٣- الفطرة الخارقة للبناء الهندسي في عالم النحل	٢١٠ ــ ٢١٨
٤- القرآن والحقائق العلمية	٢١٩ ــ ٢٢٨
٥- لمحات عن مفهوم الدابة في القرآن والسنة	٢٢٩ ــ ٢٤٤

٦- القرآن والتمايز الخلقي في حواس الإنسان	٢٤٥ ـ ٢٥٤
٧- لمحات عن مفهوم الوسط في القرآن و السنة	٢٥٥ ـ ٢٦٦
٨- القرآن وعلم منطق الطير	٢٦٧ ـ ٢٧٦
٩- المحبة في القرآن والسنة	٢٧٧ ـ ٢٩٠
١٠- القرآن والفطرة الخارقة في بيت العنكبوت	٢٩١ ـ ٣٠٢
١١- لمحات عن مفهوم العمل في الإسلام	٣٠٣ ـ ٣١٣
١٢- مفهوم الميزان في القرآن والسنة	٣١٤ ـ ٣٢٤
١٣- مفهوم الأزواج في القرآن	٣٢٥ ـ ٣٣٦
١٤- أول زراعة قلب في التاريخ ومدلولاتها	٣٣٧ ـ ٣٤٨
١٥- حقيقة البعث من القبور في القرآن والسنة	٣٤٩ ـ ٣٦٠
المحتويات	٣٦١ ـ ٣٦٣